والعروض والشعر كل ذلك له اسمان لغوي وصناعي» وقد اصبح كل هذا بحكم القرءان من الالفاظ المستحدثة في العربية بالاضافة الى ما كان جاريا عندهم ودارجا بينهم ويرجع الفضل الى القرءان الكريم في ارشاد اهلها الى العناية بها لما حازته من اسباب القوة ، والرقي ، والحيوية ، قال تعالى : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم »، « انا انزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون » ، « وكذلك انزلناه حكما عربيا » ، بل هو اعظم ضمان لصيانتها من الضياع وحمايتها من الفساد فهو ديوانها الجامع ودستورها المانع ، ولذلك نعتقد ان الحق والصواب مع من حث ويحث على حفظ القرءان الكريم صونا لآدابها وعونا عليها لطلابها وقديما قالوا القرءان قاموس من لا قاموس له وسند من لا سند له .

ومن هنا كان لقوة الدولة العربية الاسلامية التي ركزت حياتها على كتاب الله عز وجل اثر كبير في صقل اللغة واستثمارها والتوسع في دلالتها واساليبها لاسيما اذا كثرت الحاجات والمحسوسات وتجددت الوسائل والادوات فان ذلك يساعد على ترقيتها وتوسيع كلماتها ، وما زال الكتاب العصريون يطالعوننا كل حين بأسلوب جديد وابتكار فريد وذلك ما يشهد على قدرة اللغة ومرونتها واستعدادها.

واما الرابع وهو وفرة المادة فهو شيء لا تلام عليه اللغة العربية بل وربما شكا اهلها من كثرة مفرداتها وصعوبة الاحاطة بها وهذه معاجمها تهديك الى الحق في هذا الباب فلسان العرب لابن منظور الافريقي ينطوي وحده على ما يقارب ستين الف مادة واذا اعتبرت ان كل مادة يدخلها الاشتقاق وما يتفرع عليه ادركت ان جملة مفردات اللغة لا تكاد تدخل تحت الاحصاء وبذلك استطاعت لغة العرب ان تقوم بنفسها وتستقل عن غيرها مما حسدتها عليه كثير من اللغات الناهضة ــ ولا عار في وجود الدخيل من اللغات الاعجمية فان ذلك لا ينقصها شيئا من استقلالها لان مقومات اللغة المكونة لجهازها تامة وقائمة ــ ولان اللغات ياخذ بعضها من بعض كما ياخذ الانسان من الانسان وهذا شان الكائنات يرتفق بعضها ببعض ، الا ان نسبة الاخذ قد ترتفع وقد تنخفض ــ ولان الكلمات الدخيلة اقلية ولا اعتبار للاقلية مع الاكثرية ــ ولان هذه الالفاظ اصبحت عربية حيث تكلمت بها العرب وحولتها عن اصلها واخضعتها لنفوذ حكمها الا ترى انها لا تدعه على لفظه الذي كان عليه عند العجم الا اذا كانت حروفه في المخارج والصفات كحروف العرب .

وذلك مثل تنور وصابون فانه اتفقت فيهما اللغة العربية واللغة العجمية وعند ذلك يكون منسوبا الى العرب لا الى العجم اما اذا لم تكن حروفه كحروف العرب او كان بعضها كذلك دون بعض فلابد لها ان تردها الى حروفها ولا تقبلها على مطابقة حروف العجم ــ ومن اوزان الكلم ما تتركه على حاله في كلام العجم ، ومنها ما تتصرف فيه كما تتصرف في كلامها واذا فعلت ذلك صارت تلك الكلم مضمومة الى كلامها كالالفاظ المرتجلة والاوزان المبتداة بها .

ومما يضمن سعة اللغة العربية كثرة المترادفات وهو ما يعين الكاتب المولع بالبديع على شجعه وجناسه وفواصله ، والشاعر المرتبط بميزانه وقافيته وموازنته فوجود المترادفات في اللغة العربية يتوافق مع طبيعتها في السحر والابداع .

وهاهي كتب فقه اللغة تكفلت بضبط مسميات الالفاظ ومواقع استعمالها وما بين معانيها من الفروق وان قلت ودقت فاذا احكم الكاتب او الشاعر استعمالها كان مصورا للمقاصد والمطالب بكل دقة وبكل وضوح .

واما الاصل الخامس وهو فصاحة اللفظ وبلاغة التركيب فقد بلغت فيه العربية المقام الامثل وقد تجمعت هذه الصفات في مضر ، وانحصرت في قريش ، وتلخصت في النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم كما روى عنه انه قال : « انا افصح من نطق بالضاد بيد اني من قريش ونشأت في بني سعد » . ومن بلاغته صلى الله عليه وسلم انه تكلم بما لم يسمع من العرب قبله كقوله « مات حتف انفه » ــ « وحمي الوطيس » ــ «ولا يلدغ المومن من جحر مرتين» ــ الى غير ذلك مما سجله الجاحظ في كتاب « البيان والتبيين ».

فهذه هي اصول حياة اللغة وبقائها ولا نشك في توفر لغة الاعراب والبيان على هذه العناصر وانها لم تزل كما كانت لغة العلم والثقافة ، لا تتاخر عن مسايرة ركب الحضارة بشرط ان يعمل اهلها على

ضمان وجودها في حياتهم ، ونفوذها في عالمهم ، وكم يلذ لي ان « اورد قصة طريفة اوردها ابن الاثير في المثل السائر قال : « وحضر عندي في بعض الايام رجل من اليهود وكنت في الديار المصرية ، وكان لليهود في هذا الرجل اعتقاد لمكان علمه في دينهم وفي غيره وكان كذلك فجرى ذكر اللغات وان اللغة العربية هي سيدة اللغات وانها اشرفهن مكانا واحسنهن وضعا فقال ذلك الرجل : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت ءاخرا فنفت القبيح من اللغات قبلها واخذت الحسن ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة فاختصر ما اختصر وخفف ما خفف فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني – كوميل – مما لا على وزن فوعيل فجاء واضع العربية وحذف منها الثقيل المستبشع وقال جمل فصار خفيفا حسنا وكذلك فعل في كذا وكذا ..»

الا ان نفسي حدثتني ان هذا الكلام اساء الى العربية اكثر مما أحسن اليها لان اليهود لا يمكنهم ان يتجردوا عن سمومهم واحقادهم في كل ما يمت الى الاسلام والمسلمين بصلة وقد اكد الله لنا ذلك في كتابه الحكيم « لتجدن اشد الناس عداوة للذين ءامنوا اليهود والذين اشركوا » وهذه الاساءة تتجلى في ثلاثة مواضيع – الاول قوله : « كيف لا تكون كذلك وقد جاءت ءاخرا » والثاني قوله : « ثم ان واضعها تصرف في جميع اللغات السابقة » والثالث قوله: « فمن ذلك اسم الجمل فانه عندنا في اللسان العبراني – كوميل – الخ ووجه ذلك انه يشير الى انها تولدت عن غيرها وانها ماخوذة من اللغات العبرية على الخصوص مع أن اللغة العربية عند المحققين هي شقيقة اللغات السامية وليست متولدة عن شيء منها لا كما يزعم بعضهم انها بنت اللغة العبرية والبينة على انها اصل بنفسها – انها اقرب اللغات السامية شبها باصلها حسبما اثبته الباحثون في نشأة اللغة الاولى وما تفرع عنها من لغات – وانها عاشت في نواحي منعزلة عن بقية اللغات السامية وبذلك يعسر اتصالها بها بصلة الاشتقاق والتفريع .

فاللغة العربية في غنى عن شهادة اليهود – اذ هي اوضح وسيلة للتعبير عن الاغراض واقدر على تصوير الحقائق وتحليل الغوامض ، واوسع من ان تضيق عن موضوع او محسوس – وهي لغة التنزيل الذي يعتبر حدثا عظيما في تاريخ اللغة العربية لانه نموذج جديد تطورت العربية فيه فكانت خليقة ان تكون معربة عن دين جديد هو في الحقيقة حضارة جديدة ومن الطبيعي ان تتطلب هذه الحضارة الطريفة مادة لغوية جديدة تسمى اللغة الاسلامية او الالفاظ الاسلامية – ومن اجل ذلك وجد الباحثون انفسهم في حاجة الى وضع مؤلفات تشرح هذه اللغة الجديدة فكانت هي الكتب التي تحمل عنوان مجاز القرءان ، او غريب القرءان ، او مشكل القرءان ، او تشبيهات القرءان ، او معاني القرءان ، فمثلا الفاظ الصلاة والزكاة والصوم والجهاد والفرض والسنة والصدقة والنافلة والحديث وغير ذلك مما يدخل في نطاق اللغة الجديدة – دلت على معان جديدة في هذه الفترة التاريخية من تاريخ اللغة العربية .

ولغة القرءان والحديث طبعت اللغة العربية بطابع واضح مبين هو التزامها الاعراب الذي لم يكن شائعا ولا مستعملا على نحو ما التزمته نصوص القرءان ومعنى ذلك ان العربية في لهجاتها المتعددة لم تكن تتقيد بضوابط الاعراب ولكن لغة التنزيل هي التي جعلت الاعراب سمة لازمة للعربية التي اريد لها ان تكون كذلك – وعلى هذا فلم يخل عصر من عصور التاريخ اللغوي من ازدواجية في اللغة – لغة فصيحة يتوخاها الكاتب في كتابته ، ولغة عامية تستعمل في التخاطب والتفاهم ، وربما تعدى الامر فيها مسالة الاعراب الى الالفاظ نفسها حيث تكون بعيدة عن الالفاظ الصحيحة – وعذر العرب انهم كانوا يتاخمون اقواما في اطراف الجزيرة العربية فاعداهم ذلك وغير لسانهم وحرف كلامهم – واعتبارا لذلك يمكن ان تكون صيغ الجموع وغيرها راجعة الى اختلاف اللهجات الخاصة اذا كانت قريبة من اللغة الاصلية .

وعلى اي حال فاللهجات العديدة ، والاستعمالات الجديدة التي لا يعترف بها علماء العربية ما هي الا نتيجة للتطور الطبيعي في اللغة واستمرار لحياتها من حيث انها فرضت نفسها فرضا وجمعت حولها جموعا من الناس .

ومن الاستعمالات الجديدة ما روي ان احد الظرفاء جاء الى ابي تمام الشاعر المشهور وساله ان يعطيه قارورة من ماء الملام حيث انكروا عليه قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني
صب قد استعذبت ماء بكائي

فقال له ابو تمام لا اعطيك ما سالت حتى تأتيني بريشة من جناح الذل وهو يشير في جوابه اللطيف الى قوله تعالى في الوصية بالوالدين : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وهو يريد ان يقول ان لاستعمالات المجاز في العربية الوانا من الابداع والابتكار فكما ان لغة التنزيل ابتكرت المجازات الدقيقة اللطيفة ، فصارت من انفس نفائس العربية ، كذلك يكون من حق الشاعر المبدع ان يبتكر في استعمال المجاز .

ولا ننسى ان المجاز قام بدور كبير في تطور اللغة وفي مسالة الدلالة ، والمجاز واقع في كل زمان، وقائم بكل لسان، والكلمة خاضعة للتغير بحكم الطبيعة، وبحكم الشريعة .

وبعد فقد علمنا ــ ان انتشار الاسلام كان من اقوى العوامل في انتشار اللغة العربية اذ هي لسانه وادائه ــ ومن عادة الناس انهم يتسارعون الى تعلم لغة الغالب لكي يضمنوا لانفسهم تقربا من الدولة الغالبة فيتسنمون المراكز ، ويترسمون المناصب وذلك شأن المغلوب مع الغالب فلغة الفاتح تنتصر عندما ينتصر وتستقر عندما يستقر واعان على ذلك هنا ما في تعاليم الاسلام من التسامح واقامة ميزان الحق والعدل ، فاقبل الناس على الاسلام وعلى لغته وسار الاسلام وسارت اللغة معه قدما بقدم ــ وقد اثر القرءان الكريم تاثيرا عظيما في اللغة والبلاغة، وكان باعثا قويا على تدوين اصولها وقواعدها ، وسائر علومها .

ومن الكتب التي عنيت بدراسة لغة القرءان واساليبه كتاب «مجاز القرءان» لابي عبيدة معمر ابن المثنى اللغوي المتوفى سنة 208 هـ وقد كان السبب في تاليفه هو التشبيه القائم في قول امريء القيس

ايقتلني والمشرفي مضاجعي
ومسنونة زرق كانياب الغوال

هل المشبه به معلوم او مجهول ــ وهذا الكتاب يفسر ما في الآيات الكريمة من مواد غريبة ، ويبين وجوه نظم القرءان التي يوجد مثلها في كلام العرب، ويتضمن كثيرا من مسائل البلاغة كالتشبيه والاستعارة والكناية ، والتقديم والتاخير والايجاز والالتفات ، ورتبه صاحبه على حسب ترتيب سور القرءان وءاياته ليسهل تناوله ويعم نفعه ان شاء الله ــ وكتاب «غريب القرءان» او«مشكل القرءان» لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى سنة 213 هـ ورتبه كترتيب ابي عبيدة ، واعتمد فيه على كتاب ابي عبيدة وعلى غيره ممن سلك هذا المسلك والمراد انه اخذ من ذلك اخذ الناقد البصير الذي يعرف ما ياخذ وما يذر ولذلك تراه مرة ينقد نقدا لاذعا واخرى نقدا هادئا ــ وكتاب «تلخيص البيان، في مجازات القرءان » ، لابي الحسن محمد بن ابي الحسن المعروف بالشريف الرضي ، المتوفى سنة 406 هـ بين فيه ما في القرءان من استعمالات مجازية ونهج منهج ابي عبيدة في الوضع والتقرير ــ وكتاب ابي القاسم عبد الله بن ناقيا البغدادي المتوفى 485 هـ الذي حلق في اجواء الفضاء ، واضفى على التشبيهات القرءانية انوارا جديدة وقدم معلومات وافادات طريفة فحق له ان يكون مرجعا في الدراسات القرءانية والبحوث البلاغية والاسرار اللغوية ــ وكتاب « الايجاز في انواع المجاز لابي محمد سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام الشافعي المتوفى سنة 660 هـ بداه بمعلومات قيمة عن المجاز والبلاغة ورتبه على سور القرءان الكريم وختمه بطرائف وفرائد .

نظرة في الصلات العربية الفارسية حتى مطلع الإسلام

الدكتور محمد التونجي

نعم ان العرب والعربية ، يوما ، وصلا اقصى الشرق واقصى الغرب ، اقصى الشرق حتى بلغا مشارف الصين وتمدياها ، واقصى الغرب حتى وصلا اعلى جبال البرانس وتخطياها . وقد سارت العربية مع الركبان ، وتغنى بها الحداة ، فسمعها الاغراب عن الاعراب ، فهزهم الشوق الى معرفتها ، فاقبلوا عليها يتعلمونها او غيرة من شهرتها وسلاستها ، فمالوا عليها يريدون ان يعبثوا بها ولكن :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها ، واوهى قرنه الوعل

ولقد خرجت اللغة العربية في العصور القديمة من الارومة السامية تاركة شقيقاتها : الفينيقية ، الكنعانية ، الاشورية ، العبرية .. وغيرها لتفوقها اتساعا وامكانية عشرات المرات ، ولتغزو وحدها لغات فارس ، وباكستان والهند وتركية ، ثم شمال افريقية وقلبها والاندلس وجنوب ايطالية . ولقد لمست اللغة العربية كل لغة من لغات تلك المناطق لمسات تتراوح بين التأثير الزهيد والدوبان التام .

ولا يعني حديثي هذا ان العربية اثرت ولم تتاثر ، لا ، فما من لغة في الدنيا لم تطعم غيرها ولم تتطعم بغيرها ، واللغة التي لا ترفد ولا ترفد تعتبر جافة ضيقة المحيط والامكانية . كما لا يضير لغة تاثرها بجارتها او بجاراتها ، ولا يحط ذلك من قدرها .

وبما أن حديثنا محاط باطار تبادل التاثر والتاثير بين العربية والفارسية ، فلاذكر ان للعربية فضلا على الفارسية هو فضل اتمام النقص وسد الحاجة من المفردات التي انتشرت في اللغة الفارسية، مع اقتباس وتشبع بالادب العربي وتاريخه وتاريخ تطوره اثر انتشار الاسلام والعربية في الشرق المسلم . وقد اخذوا منا كثيرا واخذنا منهم اكثر ، اخذنا منهم في العصر الجاهلي والاموي والعباسي والانحطاط ، ولا زالت بقاياها في لغتنا الحديثة الفصيحة منها والعامية، واخذوا منا منذ صدر الاسلام ، ولا زالوا ياخذون حتى اليوم . والعالم عندهم ، قديما وحديثا ، هو الذي يجيد العربية قدر اجادته للفارسية ، ومقياسهم العلمي والادبي للمرء مقدر بمدى معرفته للعربية وتمكنه منها .

يقول العوفي في كتابه « جهار مقاله : المقالات الاربع » ، في هذا الشان ما ترجمته : « لا يبلغ كلام الكاتب درجة عالية حتى ياخذ من كل علم نصيبا ، ومن كل استاذ نكتة ، وينبغي ان يعتاد قراءة كتاب رب العزة ، واحاديث المصطفى ، والنظر في صحف الخلف مثل ترسل الصاحب والصابي وقابوس ، والفاظ الامامي وقدامة ، ومقامات بديع الزمان ، ورسائل عبد الحميد ، ومن دواوين العرب : المتنبي والابيوردي والغزي . ومن شعر العجم الازرقي والفردوسي » .

للتبادل الثقافي مرحلتان : مرحلة ما قبل الاسلام ومرحلة ما بعده . وبما ان المجال ضيق والحديث

شيق ، والمرحلتان واسعتان ، فانني اكتفي باستعراض لمحات ترمي الى مدى التبادل الثقافي الذى كان يجري في الجاهلية وحتى مطلع القرن الهجري الاول ، مرجئا الحديث عن المرحلة الثانية ، وهي الاوسع ، الى مقالة ثانية ان شاء الله .

اما المرحلة الاولى فقد كان العرب على اتصال مع الفرس منذ كورش الذى توفى (550 ق. م.) اذ دفنوا له الجزية ، ثم اعانوا ابنه « كبوجية » ، والذي اسماه العرب (قمبيز) ، عام (525 ق. م.) على فتح مصر والسودان . كما يروى ان الفرس كانوا يعظمون البيت الحرام ، ويحجون الى مكة ، ويطوفون بالبيت ، ويزمزمون على بئر اسماعيل . ومن جملة الاكاسرة الذين حجوا الى مكة « ساسان بن بابك » مؤسس الدولة الساسانية . وفى ذلك يقول احد الشعراء الفرس مفتخرا :

وما زلنا نحج البيت قدما
ونلقي بالاباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتى
اتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به وزمزم عند بئر
لاسماعيل تروي الشاربينا

وقد وجدت مدينة عربية بين دجلة والفرات فى زمان « شاور بن اردشير » سنة 273 م ، قبل ان تعرف مدينة الحيرة وكان اسم مالكها « الساطرون »، والعرب تسمي المدينة « ضيزن » ، وسكن فيها قبائل من قضاعة وبني عبيد ابن الاجرم . وكان الساطرون على حرب دائم مع شابور . وقد استطاع هذا فتح المدينة وقتل الساطرون ، وفى ذلك يقول « عمرو بن آله » :

الم يحزنك والانباء تنمى
بما لاقت سراة بني عبيد

ومصرع ضيزن وبني ابيه
واحلاس الكتائب من تزيد

اتاهم بالفيول مجللات
وبالابطال ، سابور الجنود

فهدم من اواسي الحصن صخرا
كان قفالة زبر الحديد

وقد كانت الاتصالات العربية الفارسية قبل الحيرة غالبا عبارة عن معارك وغارات من قبل القبائل لتستفيد من خيرات فارس ، فيقوم جند كسرى لصد وقتل العابثين .

اما من الناحية التجارية ، وهو امر هام كذلك ، فقد كانت الجزيرة العربية سوقا لبضائع فارسية وهندية ، كما كانت محطات لقوافل فارسية ، كانت فى طريقها الى بلاد الروم او الى بلاد اليمن السعيد . وقد كانو يخشون على قوافلهم التجارية من هجمات القبائل لذا استعانوا بالعرب كثيرا ، كما اشرت ، على هذه القوافل ايام السلان والصفقة . وقد كانت مكة ، كما نعلم ، سوقا عالمية ، فيها تجار من شتى الاصقاع. وكما يحدثنا الواقدي انه كان فيها ممثلون تجاريون لفارس وبيزنطة ، كما كانت الدراهم الفارسية من العملات الرائجة آنذاك . وقد كانت بلدة « جرة » على الخليج العربي سوقا تجارية لبضائع الهند وفارس ، وقد اسست هذه المدينة فى القرن الرابع قبل الميلاد.

وعندما ازدادت اتصالاتهم بالعرب ، حربا وتجارة ، فكروا بتاسيس امارة على تخومهم ، يحمون بها انفسهم مغبة هجمات القبائل ، فاسسوا دولة المناذرة فى العراق ، ومهمتها جمع الضرائب وتقديمها للبلاط الاعجمي ، وحماية التخوم ، كما فعل الروم بتاسيس دولة الغساسنة على تخوم الشام .

ونظرا الى اهمية الحيرة ومكانتها من الادب العربي والصلات مع الفرس ، ونظرا الى النهضة الشعرية التي برزت فيها ، اجدني مضطرا للوقوف على ابواب الحيرة وقصريها ، لاطرقها ، ولانتظر جواب محدثنا عن الخورنق والسدير .

ترجع نشاة هذه الدويلة الى « جذيمة الابرش » الذي خضع للفرس ، واستعان بهم على شيء من السيطرة على القبائل فى بادية الشام . ثم ان «رقاش» اخت جذيمة تزوجت رجلا من بني اخوالها اسمه « عدى بن نصر اللخمي الايادي » ، ورزقت منه صبيا سمته « عمرا » ، فلما مات جذيمة عام 268 م خلفه عمرو هذا ، واتخذ الحيرة على مقربة من « بابل » ومن الكوفة اليوم ، منزلا له . فمن عمرو هذا جاء ملوك الحيرة .. وقيل غير ذلك .

ويظهر ان كلمة (الحيرة) سريانية ، ومعناها المعسكر ، وهي فى الاصل (حرتا) . وقد كانت مكونة من قصور محصنة حول ميدان واسع . وينسب بناء قصرى الخورنق والسدير الى النعمان الاول الذي

حكم بين 400 ـ 418 م . وقد بنى النعمان قصر الخورنق قرب الحيرة ، بناه المعمار الرومي الشهير « سنمار » . والخورنق كلمة فارسية اصل لفظها (خورنكاه) او (خورنه) ، وهو الايوان لدى ملوك الفرس ، كان يستخدم للاستفادة من اشعة الشمس وللمصادة ، وعربت الكلمة الى (خورنق) ، ثم صارت في مصر (الكرنك) .

كما بنى السدير في بادية الشام ، واصل الاسم (سه دير : القباب الثلاث) . وقد بناهما النعمان عندما ارسل « يزدكرد » وهو « بهرام كور : بهرام الحمار » الى الحيرة لينشأ نشأة فروسية ، ويربى تربية قوية ، ويتعلم القنص ، وينعم بجودة الهواء ، وكم تغنى الشعراء بجمال هذين القصرين ، وخاصة عدي والاعشى .

وتعلم بهرام هناك العربية ، ويحكى انه قال الشعر العربي ، كما نسب اليه اول بيت شعر بالفارسية . وبعد وفاة ابيه نازعه اخوه على الملك ، فاستعان بالعرب ليصل الى الملك ، وكان له ذلك ، ولما اعتلى العرش لم ينس ما كان لعرب الحيرة من يد عليه فقربهم واعلى شأنهم .

وقد كان للنعمان كتائب عسكرية اهمها اثنتان الاولى (الشهباء) وهي فارسية ، والثانية (دوسر : ذات الراسين) وهي عربية . وقد انتقلت التجارة الفارسية رسميا الى عرب الحيرة ، فنقلوا بضائعهم وحموا قوافلهم .

نستدل من ذلك كله ان التبادل جرى عن طريق التجارة اولا وعن طريق الجوار سلما وحربا ثانيا . هذا الاتصال الوثيق كان يجبر الطرفين ان يستخدموا مترجمين يقومون بالاتصال بين القصرين العربي والفارسي ، ومترجمين يرافقون اصحاب القوافل التجارية . فقد كتب (لقيط بن يعمر الايادي) لكسرى وترجم له ، وكان (عدي بن زيد) من تراجمة كسرى ابرويز ، كما كان ابوه زيد على معرفة بالفارسية .

كما كانت مدرسة (جند يشابور) معهدا لدراسة الطب والفلسفة والموسيقى ، فرحل بعض العرب لتعلم الطب ، منهم (الحارث بن كلدة الثقفي) الذي اتقن في ذلك المعهد الطب والعزف . وذهب كذلك ابنه « النضر » الى هناك ، وكلف بالفارسية . وهو الذي كان يحكي اقاصيص رستم واسفنديار في اوائل البعثة الى مكة ، معاديا في ذلك الدين الاسلامي.

ولقد رحل بعض العرب الى بلاد الفرس بقصد التنزه والسياحة ، او كانوا رسل الملوك والتجار فرات اعينهم معابدهم الكبيرة ، ومبانيهم الفخمة ، وراوا كيف يعيشون ويطعمون ويشربون ، وسمعوا في مجالسهم الحكايات والاقاصيص وحياة الملوك ، فاثر هذا الى حد ما ، في عقلية العربي ، والشاعر منهم خاصة ، فذكر ما راى واستفاد من عبرهم ، واقتبس من معتقداتهم .

كما كان عرب الحيرة اذ ذاك في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب ، ولخصب ارضهم وغنى اقليمهم . فكان اذا جاء الشاعر الى الحيرة يتاثر بالطبع من هذه الزيارة ، فيتسع خياله وتتاقلم افكاره. وعلى هذا فقد كان لكل ما مر اثر في الادب العربي وفي الحياة الحضارية والعقلية . فاحاديث جذيمة الابرش واساطير الزباء ، والخورنق والسدير ، والاقاصيص حول سنمار ، والامثال التي ضربت فيه ، ويوما النعمان : نعيمه وبؤسه . كل ذلك وغيره كان سببه هذا الاتصال الذي كان يجري بين الامتين المعنيتين ومن اهم الشعراء العرب الذين ذهبوا الى بلاد فارس: الاعشى ، والذي لقب « صناجة العرب » ، وصناجة كلمة فارسية من (جنك ـ سنج ـ صنج) وهي الآلة الموسيقية المؤلفة من قطعتين معدنيتين مدورتين يضرب بهما . ويكفي ان نورد قطعة من شعر الاعشى لنستدل على كثرة الالفاظ الفارسية المستعملة في الجاهلية . يقول في مجلس انس يصف الخمرة وساقيها والازهار المحيطة بهم . وستجد ثماني عشرة لفظة فارسية اغلبها في وصف الازهار ، في سبعة ابيات :

ببابل لم تعصر فجاءت سلافة .
تخالط قنديدا ومسكا مختما

يطوف بها ساق علينا مشوم
خفيف ذفيف ما يزال مقدما
بكاس وابريق كان شرابه
اذا صب في المصحاة خالط بقما

لنا جلسان عندها وبنفسج
وسيسنبر والمرزجوش منمنما

وآس وخيري ومرد وسوسن
اذا كان هنزمن ورحت مخشما

وشاهسفرم والياسمين ونرجس
يصبحنا في كل دجن نفيما

ومستق سينين وون وبربط
يجاوبه صنج اذا ما ترنما

وهناك ، كذلك غير الاعشى ، عدى بن زيد الذي كان عينا للفرس في بلاط الحيرة . ولن ننسى النابغة الذبياني وصاحبه النعمان ابا قابوس ، وما كان له من فضل على ايجاد باب الاعتذار في شعر العرب ، واستخدامه للالفاظ الفارسية في الشعر العربي ، ثم هناك قيس بن الخطيم ، وطرفة ومالك بن نويرة ، وعمرو بن كلثوم ، وحسان .

وتعتبر العقائد من اكثر الامور تاثيرا في الامم وفي آدابها . فقد عرف العرب في الجاهلية الزردشتية وهي المجوسية ، والمانوية ، والمزدكية . وقد تجلى ذلك بتقديس العرب للنار المقدسة عند المجوس بحلفهم بها وبوصفها ، كما عبد بعض العرب الشمس وهي من عناصر الطبيعة وهي التي عبدها الفرس والشرق ، وبدا ذلك كله في شعرهم . ونجد بقايا ذلك في اشعار الشعراء بعد الاسلام كبشار والمعري والمتنبي وابي تمام . ولا ادل على تاثرهم بالاديان الفارسية من قول ابن قتيبة في كتابه (المعارف) ، عند كلامه على اديان العرب في الجاهلية :

« وكانت النصرانية في ربيعة وغسان ، وبعض قضاعة ، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة ، وكانت المجوسية في تميم ، وكانت الزندقة في قريش .. اخذوها عن الحيرة » . وقد رفض المنذر الثالث اعتناق المزدكية فعزله قباذ وعين مكانه الحارث بن عمرو امير كنده . بعد ان اعتنق المزدكية .

وتذكر كتب التاريخ ان يوم ذي قار (610 م.)، فخر العرب ، حصل فيه اول معركة قام بها العرب باجماع تقريبا ضد امة عربية حاكمة ، واحداث هذه المعركة معروفة ، وقصة فلفرنا فيها تحكي صفحة من صفحات مجدنا العريق . فقد قتل النعمان عدى بن زيد ، فرد كسرى انتقامه بقتل النعمان ، فاستعد العرب واستعد الفرس . وكانت النسوة العرب يحرضن الرجال على الاستبسال ، ويلهبن بطولتهم باناشيد حماسية ، منها :

ان تهزموا نعانق
ونفرش النمارق

او تهربوا نفارق
فراق غير وامق

فقطع العرب احزمة رواحل نسائهم ، ليستميتوا دفاعا عن الحرائر اللواتي لا يستطعن الفرار على رواحل تقطعت احزمتها . فانجلت المعركة عن هزيمة الفرس، فاشاد الشعراء بقبائل بكر وشيبان وعجل خاصة ، كقول الدهان بن جندل :

ان كنت ساقية يوما على كرم
فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا

واسقي فوارس حاموا عن ديارهم
واعلي مفارقهم مسكا وريحانا

وكان العراق من اخصب اراضي الجزيرة بنهريها ، وبالحضارة المتبقية من حضارات الامم الاصلية ، ومن المناذرة المتاثرين بحضارة الاكاسرة. وقد امر عمر بن الخطاب (رضي) انشاء مدينتي البصرة والكوفة حول الحيرة ، فتحولت اليهما كنوز المدائن وحضارة البلاد . وبما ان سكان هاتين المدينتين من العرب ومن الموالي ، فقد اضطر هؤلاء الى تعلم العربية ، فكانوا اول من اتقن العربية والف فيها .

ولما استقر الاسلام والعرب في العراق وفارس وخراسان حصل الاتصال المباشر بين الامتين . لذا فقد اختلفت عوامل الاتصال والتبادل الثقافي بعد الاسلام عنها قبل الاسلام . فلم تعد فردية ، كما لم تعد سطحية او ضيقة المجال الزمني ، واذا رجحت كفة الفرس في الجاهلية ، واذا كان التاثر من طرف العرب هو الغالب قبل الاسلام فقد اختلف الامر عنه بعد الاسلام ورجحت كفة العرب ، نظرا الى ان الاتصال جماعي وعميق وطويل الاجل .

ويرجع السبب الاول لهذا الاتصال الى فتح العرب لارض فارس وحكمها . ولن اتحدث عن المعارك التي جرت بينهما حتى استقر الامر للعرب ، فهذا حديث طويل لا تسعه صفحات ضيقة المجال ، كما انه ليس محور حديثنا . ومن نتيجة ذلك انفسح المجال لتيارات وصلت الشعبتين ببعضهما حياة وفكرة . وصارت الخيوط التي كانت تصلهما في الجاهلية طرقا نسيجة ممهدة ، وصارت العلائق الفردية روابط اجتماعية وثيقة ، واصبحت الصلات الموقوتة عرى دامت قرونا نسيجة . وحسبنا ان نشير الى ان العرب اسسوا على حدود الفرس عددا من المدن اتخذت الطابع الفارسي ، كما كان اسم اغلبها فارسيا ايضا ، من ذلك : البصرة (بسراه : بعد الطريق) ، الكوفة ، الانبار (المخزن ، ثم صارت

في العامية عنبر) ، بغداد (الله المعطي ، حديقة الله) .. وسرعان ما امتلأت هذه المدن بالعرب ، وسرعان ما وفد اليها الفرس . ثم غدت مراكز للثقافة العربية الاسلامية .

كما اعتنق الفرس الاسلام مختارين ، تخلصا من المظالم التي اصطلوا بنارها قبل الاسلام ، فتسابقوا الى تعلم العربية على انها لغة الدين والحكم . وقد ازداد الاختلاط في زمان العباسيين ، وكما نعلم ان للفرس ضلعا قوية في تأسيسها . ولقد زاحم الفرس العرب في الوزارة والحجابة وقيادة الجيوش وجباية الاموال وولاية الاقاليم وادارة الدواوين ومنادمة الخلفاء وقرض الشعر .

ولقد دخلت القرآن الكريم الفاظ فارسية منها : ابريق . طبق . سراب . سجيل . جرف . سندس . مسك . كافور . خندق . استبرق . كنز . ومن شاء الاطلاع على الالفاظ الفارسية في القرآن فليرجع الى الاتقان للسيوطي او الى المعجم الذي كتبه « آرثور جفري » في الدخيل من كلمات القرآن التي قبسها العرف من الفرس ، وهي مما سنتحدث عنها في مقالتنا القادمة .

* * *

ومن الحق ان نقول ان للفارسية فضل راب الحاجة الحضارية وسد النقص اللغوي الذي تطلبه العصر الجديد بعد الفتح ، فدخلت في قرآننا ونثرنا وشعرنا وامثالنا . واذا كنا تاثرنا بهم حكما وسياسة وتابعية وديننا ولغة قبل الاسلام ، فاننا اثرنا باستقلالهم وادبانهم ولغاتهم بعد الاسلام . ولما ضاع استقلالهم ، واندمجوا في دولة الاسلام التي قادها العرب ، ولما ضاعت ادبانهم وذابوا في الديانة الاسلامية انغمسوا في العربية ؛ قرآنها وآدابها وعاداتها . وما هي الا فترة وجيزة حتى غدت الالفاظ العربية مبثوثة في النصوص والاحاديث الفارسية بشكل لا يمكن التخلي عنه باية حال . فما من نص الا وفيه ثلاثون بالمائة او اكثر من الالفاظ العربية ، وما من قصيدة الا واغلب قوافيها عربية .

ويعتبر الاثر العربي الاول في الفارسية تغيير الخط البهلوي الصعب بالخط العربي السهل ، فنراهم منذ اوائل الاسلام يغيرون الالفباء البهلوية بالفباء عربية مضيفين اليها اربعة حروف فقط لم يكن رسمها موجودا في العربية لعدم وجود نطقها ، فرسموها بشكل مناسب للحروف العربية القريبة النطق منها . فكتبوا (ب) باء بثلاث نقاط ، و (ج) جيما بثلاث نقاط ، وكذا (ث) زايا بثلاث نقاط . ووضعوا خطا آخر فوق الكاف للكاف الفارسية .

(يتبع)

إفريقيا المسلمة متحمسة للغة القرآن

... ولكن ضعف الوسائل يحول دون انتشارها

الشيخ شريف مكي حسيد

(حلب)

لعل اظهر مظاهر الترابط بين الاسلام ولغة القرآن ، ان الاسلام لا يمكن ان يفهم فهما كاملا بدون التعمق بدراسة لغة القرءان ..

فقد نزل الوحي الرباني على النبي الكريم بهذه اللغة التي جمعت فاوعت .. وكانت من البلاغة وسحر القول ما هز النفوس وايقظ الضمائر ..

وحين استفاضت الدعوة المحمدية لم تشمل العرب فحسب ، بل تجاوزتها الى الكثير من اقطار الدنيا فاستجابت لها امم من الشرق ومن الغرب ، متباينة الاهداف والانظمة والعقائد واللغات ـ استجابت للدعوة المحمدية لا لشيء الا لما تضمنته من مباديء انسانية ونزعات مثالية ونظم خيرة وسنن كريمة .

وقد اقبل غير العرب على تعلم لغة القرءان بغية فهم محكم آياته فانكشفت لهم آفاق ترفع من كرامة الانسان وتصون حقوقه وتثيره ليكون اداة بناءة في دعم الحضارة الانسانية ..

وما هي الا فترات لم تطل ، جيلا بعد جيل ، حتى كانت العزيبة ،، قد هزت افئدة فطاحل الرجال الاذكياء من مختلف الامم ، فعكفوا وهم يدرسونها ، على التعمق في اسرارها فما كادوا يلمسون هذا الجمال ، وهذا الغنى في الفاظها ومفرداتها ، وفيما تحمله حروفها وحكماتها من دلالات ومضامين هدتهم الى فهم آيات القرءان واحاديث النبي وكل ما يتصل بروح الشريعة الاسلامية حتى اخذوا يؤلفون بالعربية دون لغاتهم الاصلية التي ما كانت لتستطيع التعبير عن آرائهم وخوالجهم بهذه الآفاق المنطلقة .

والتآليف التي تركوها تقل في قيمتها العلمية عن التي الفها ابناء العرب الخلص .. ولا مبرر لهذا الاتجاه الا الحافز الذي دفعهم لادراك اسرار الشريعة الاسلامية ، ثم النزعة التي فاضت بها القلوب بحب هذه اللغة التي نزل بها القرآن فكانت الشعلة التي اوقدت الافكار فتركوا لنا تراثا ضخما ما تزال البشرية تعيش على روائعه مختالة فخورة ..

ولا مجال لذكر الاعلام الذين الفوا في العربية فهم من شتى الامم ، من الفرس والترك والديلم والهنود ، حسبي ان اذكر الفارابي ، وابن جني ، والغزالي ، وابن-سينا ، والفخر الرازي والبيروني ، والسهروردي وعشرات من الفحول الذين تركوا لغتهم وكتبوا تاملاتهم وءاراءهم في الدين والتصوف والعلم والادب والحكمة ـ كتبوها بالعربية الفصحى وما تزال متداولة حتى يومنا هذا ..

وفي خزانتي كتاب باللغة التركية عنوانه « عثماني مؤلفلري (1) لمؤرخ اديب اسمه «بروسلي

(1) الكتاب في مجلدين كبيرين نيفت صفحاتهما على الستمائة صفحة بالحرف الصغير .

محمد طاهر» ترجم فيه لمئات المؤلفين الاتراك الذين دونوا علومهم بالعربية .. فهم مؤرخون واطباء ورياضيون وجغرافيون وشعراء وادباء وعلماء — الفوا بالعربية وبالتركية والفارسية وما الفوه بالعربية اكثر ..

وافتتح هذا الكتاب على غير هدى ، واقرأ سيرة عالم عرف باسم الـ «الكافيجي» او «الكافيجي» اسمه ابو عبدالله بن سليمان بن مسعود الرومي احد فضلاء الاتراك ، هجر قريته « برغمه » وقام برحلات الى اطراف الاناضول ، والى ايران ، والى آسيا الصغرى يتصل بالعلماء ويأخذ عنهم ، ثم انتهى به المطاف الى مصر فاتصل بالملك الاشرف بريباي الذى اكرم وفادته وخلع عليه الخلع ، ثم ناط به احدى الرتب العلمية .

لقد ترك هذا المؤلف التركي عشرات الرسائل والكتب بالعربية منها :

1 — التيسير فى علم التفسير

2 — انوار السعادة فى شرح كلمة السعادة

3 — تشريح مسالة الاستثناء

4 — الاشراق فى مراتب الطباق

5 — سيف القضاة على البغاة

6 — الفرح والسرور فى بيان المذاهب

7 — نزهة الارواح وغبطة الاشباح فى التصوف

8 — شرح تهذيب المنطق والكلام

9 — منبع الدرر فى علم الاثر

10 — منازل الارواح

11 — المختصر المفيد فى علم التاريخ

12 — حل الاشكال فى مباحث الاشكال والهندسة

13 — تفسير الآيات المتشابهات

14 — نزهة المعرب فى المشرق والمغرب

ويصل عدد هذه الرسائل والكتب الى الاربعين كتابا .

واكثر الكتب التى اشار اليها مؤلف الكتاب ، هي مخطوطات فى مكتبات استانبول والاناضول .. ولا اعلم اذا كانت بعثة الجامعة العربية لتصوير المخطوطات العربية والتى قامت بعدة رحلات الى تركيا — قد اهتدت الى هذه الآثار وصورت بعضها !..

* * *

كان علماء الاتراك فى عهد السلطنة العثمانية يؤلفون الكثير من كتبهم بالعربية كعلماء الفرس تماما ..

ومنذ عهد الغازي اتاتورك ، وقبله بسنوات ، اي منذ ذرت « العنصرية الطورانية » قرنها — توقف هذا الاتجاه ، بل قضي عليه تماما بعد ان استبدل الاتراك الاحرف العربية بالاحرف اللاتينية — وهذه جناية لا تغتفر فرضها اتاتورك على الشعب التركي الذى فصل بينه وبين الحرف العربي المقدس الذى نزل به القرءان .. وكاني به قد مس الاخوة الاسلامية فى الصميم وجعله يتجه الى الغرب بدل ارتباطه بالشرق وبالشرق الاسلامي بصورة خاصة.

واستدرك فاقول ان الشعب التركي بمجموع افراده وطبقاته ومجتمعاته متدين عميق التدين ، يفيض قلبه بروح الاسلام ، وما يزال مرتبطا بحسه وقلبه وضميره ببلاغة القرءان .. ولكن هذه الصلة بين الروح الاسلامية وبين الجيل الجديد سيمروها شيء من البلبلة والتفكك الا من عصم ربك !

اذكر بهذه المناسبة ان نقاشا كان دار بيني وبين صاحب جريدة « آقشام » — الماء — الاستاذ نجم الدين صادق — وهو من انصار اتاتورك المتحمسين — دار هذا النقاش حول الحرف اللاتيني ، واذكر انه قلت له : ان الجيل الجديد سيعيش غدا فى متاهات مظلمة حين يبحث عن اصل الكلمات التى دخلت لغته — وقد دخلها الكثير من لغات الشرق والغرب — . وضربت مثلا عدة كلمات منها كلمة « المحبة » — والاتراك يقلبون الحاء «هاء» فيلفظون المحبة « مهبت » ، وامثالكم من الجيل القديم يدرك ان اصل الكلمة من «الحب» وهي كلمة عربية ، اما الجيل الجديد — وقد قطع صلته بالحرف العربي — فسيجهل الكثير من اصل الكلمات التى يتحدث بها او يكتبها — سيجهل اهي عربية الاصل ام افرنسية ام سنسكريتية — وبذلك تطغي البلبلة على افهام النشء الجديد الذى سيعيش فى تيه من الرطانات!

واقر بالامر .. ثم قال اننا اخترنا الخطة التى رسمها الغازي ولا حيلة لنا فى الامر ، ولسنا نادمين!

هذا وقد استطاعت العربية ان تفرض ذاتها على الكثير من الامم الاسلامية فكان لبلاغة القرءان اثرها فى النفوس وفى العقول وفى الاذواق .. ومن هنا ظل الترابط وثيقا بين العربية والاسلام ، وكان لهذا الترابط اثره فى غير المسلمين ولدى المستشرقين بصورة خاصة فاننا نقرأ لكثيرين منهم دراسات باللغة العربية على غاية من العمق والقيمة الفكرية .

قد يقال ان عكوف المستشرقين على تعلم العربية يختلف كل الاختلاف على اولئك الذين اجتذبهم الاسلام الى رحابه ودخلوا فى دين الله افواجا .. ولا نقول غير ذلك .. الا ان غنى اللغة وسحرها واستيعابها لروح الاسلام ولشريعته السمحة هي التي اجتذبتهم الى دراستها فتركوا آثارا تعتز بها الدراسات المنهجية وان شاب الكثير منها نزغات وشكوك ولوثات لم تخف على الباحثين الذين تناولوها بالرد على ضوء من الحقائق المجردة التى ترضى العقل والضمير ويقرها الايمان والفكر الحر ..

وبعد فليس هنا مجال التوسع فى هذا الاستطراد الذي جاء عرضا وانا اشير الى لغتنا الجميلة التى عاشت مع القرون وما زالت حية نابضة معبرة عن الكثير من الخلجات الانسانية ، تأخذ وتعطي دون ان يصيبها الهزال او الشيخوخة او الموت الذى اصاب الكثير من اللغات !

* * *

وقد ظلت العلاقة بين الاسلام واللغة العربية غير منفصلة طوال عصور التاريخ .

ففي بلد الشام، ونرجع الى عهد الفتح العربي، كانت لغة السوريين خليطا من الآرامية والسريانية واليونانية وغيرها من لغات ولهجات .

وكانت العربية على لسان بعض القبائل والمشيخات العربية القاطنة فى الاطراف والتخوم ، فلما جاء الفتح العربي يحمل رسالة السماء بلغة عربية صافية تهز المشاعر بايقاعها الموسيقي ، وتثير الافهام بمعانيها السامية التى صانت «حقوق الانسان» وحددت له واجباته ومسؤولياته نجد الله والمجتمع — استطاعت لغة هذه الرسالة ان تكتسح بقية اللغات وان تحتل الصدارة فى البيئات الرسمية والشعبية وعلى السنة القوم على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، وما هي الا فترات لم تطل حتى انقلبت بلاد الشام عربية اللسان ، وعربية الفكر والقلب والوجدان ، وانضوت باكثريتها تحت راية القرءان .

لقد كان هذا الحدث من اقوى العوامل والاسباب التى ربطت ، فى الاقليم الذى اعيش فى ظلاله ، بين العربية والاسلام .

ومن الشام انطلقت البعثات تنشر هذه الرسالة، رسالة النبي العربي فى انحاء الدنيا .. تنشر الدين واللغة معا . واذا الاسلام ببلاغة القرءان وبدستوره المحكم يقضي على الوثنيات ويصبح للغة العربية هذه القداسة فى نفوس القوم والاداة المعبرة عن هواجسهم وآرائهم فى شتى شؤون الحياة والمجتمع ، وفى شتى الوان المعرفة ..

* * *

هذا وان ءاثار لغة القرءان جلية فى انتاج علماء العجم .

نلمس ذلك فيما كتبه شاعر الباكستان العظيم محمد اقبال ، ففى اكثر كتاباته صور من نفحات القرءان ، والفاظ تنبع من صميم القرءان .

ونلمس هذا عند شاعر الترك الاعظم عبد الحق حامد . فالكثير من شعره وادبه مزدان بنفحات من كتاب الله العظيم ..

واستطاع القرآن ان يصون لهجات الجاليات الاسلامية فى الاقطار الغربية — من الهلهلة ، بل كان له اثره فى اضفاء رونق جميل على أدبهم . وهذا ما نلمسه فى ادب المهجريين وشعرهم واكثرهم من اخواننا المسيحيين !

آثار لغة القرآن في لغة المسلمين العجم

الأستاذ سامي الدّيابي

احد زعماء افريقيا السوداء (دكار)

لابد للباحث فى هذا الموضوع ان يأخذ بعين الاعتبار عاملين هامين رافقا الاسلام :

ـ اولهما : هبوط الوحي السماوي على محمد ابن عبد الله (صلعم) وهو عربي ومن بيئة عربية .

ـ وثانيهما : نزول القرآن وهو « قاموس » الاسلام ودستوره بالضرورة ـ باللغة العربية ـ

من هنا كان الترابط محكما ومتينا بين الاسلام ، ولغة الاسلام « اي لغة الضاد » ، وكان على مسلمي الارض قاطبة ان يلموا باللغة العربية ، ليستطيعوا بالتالي تادية فروض الاسلام والقيام بشعائره وترتيل القرآن .

وهكذا كان لابد للغة العربية ان تصل حيثما وصل الاسلام وحيثما حل المسلمون .

وكان لا بد كذلك من ان ينتشر الاسلام بشكل اشمل واعم فى البيئات العربية المنطق واللسان . ـ فالترابط فى نظري ـ بين الاسلام واللغة العربية ترابط عضوي واساسي لا يقلل من اهميته اطلاقا انتشار الاسلام فى بقاع نائية مثلا لا تمت الى العرب بصلة وليس لها اي المام باللغة العربية . فالاسلام لم يصل الى هذه البقاع الا من طريق من حملوا هديه ورسالته وانطلقوا ينشرون تعاليمه فى مشارق الارض ومغاربها . اوليس طارق بن زياد هو الذى حمل الاسلام الى الاندلس والمغرب من طريق الفتح ؟ .. اوليس عقبة بن نافع هو الذى حمل الاسلام الى افريقيا السوداء ينشر تعاليمه ويبشر برسالته عن طريق حملاته التوسعية ؟ .

لقد توسع الاسلام فى افريقيا دون وجود بيئة تلم بالعربية او تجيدها . وكان الفضل فى ذلك لمواعظ كبار العلماء وجهودهم من جهة ، ولتوفر الاستعداد الفطري عند الافارقة لتقبل الدعوة . ففى منطقة « الكازامنس » فى السينغال مثلا : كان وجود علماء كبار من امثال والدي المرحوم الشريف يونس ضرورة اكيدة وعاملا هاما فى نشر الاسلام ، واكتساب العدد الاكبر من السكان الى جانب الدعوة .

ان كثيرا من التعابير والآيات القرآنية تمازجت مع اللغات المحلية واللهجات الاقليمية للمسلمين فى مشارق الارض ومغاربها ، حتى غدت جزءا من هذه اللغات واللهجات ، الشيء الذى يؤكد مجددا التلازم والترابط بين الاسلام واللغة العربية ، هذه اللغة التى ابت الذوبان فى غيرها من اللغات على مر العصور ورغم ما عانته من هزات وازمات، ذلك ان الاسلام اغناها بسحر آياته واعجاز كلماته فاغتنت واغنت ، وليس من العجب فى شيء ان نرى عددا كبيرا من طلبة المعاهد والثانويات الافارقة ينزعون الى تعلم اللغة العربية واتقانها بديلا للغات الاجنبية الاخرى . ولكن للاسف يحول دون العدد الاكبر منهم وتحقيق غايته نقص الوسائل وعدم توفر الامكانيات .

محنة القومية العربية

الأستاذ أحمد الصوفي

(الموصل)

بدا الصراع الدموي بين القومية العربية وبين الشعوبية بعد ان تحرر العراق العربي من نير الاستعمار الفارسي في عهد خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، وانضمام هذا القطر العربي الى الام الوطن العربي الكبير وربط مصيره باشقائه الاقطار العربية الاخرى كسوريا ومصر واليمن والحجاز والاقسام الاخرى من الوطن العربي الكبير الامر الذي ادى الى تكالب الشعوبيين وازدياد حقدهم على القومية العربية التي حملت رسالة الاسلام الخالدة وانارت بمشعلها الوهاج وانوارها الساطعة البشرية قاطبة .

والقومية العربية الخالدة التي حملت راية الاسلام هي التي اوجدت مبدأ الضمان الاجتماعي الذي دعت اليه تعاليم الاسلام في جوهره يكفل للفرد العيش في سعة ويؤمن للسكان اجمعين ضمانا اجتماعيا قويا ضد العاهة والوفاة والعجز والشيخوخة ولم تمض حقبة من الزمن حتى فتح العرب المعمورة باجمعها واسسوا في البلاد المتحررة انظمة مستمدة من تعاليم الدين الحنيف تكفل لجميع الشعوب على اختلاف الوانها وعقائدها وقومياتها الحرية والمساواة وحرية التملك وحرية العبادة وحرية ابداء الراي . هذه هي المبادىء السامية التي حملتها القومية العربية الخالدة للبشرية اجمع ، الامر الذي ادى الى حقد الشعوبية واليهودية وقد بدأ التآمر على القومية العربية منذ تولى الخلافة الفاروق العظيم عمر بن الخطاب (رضي) وما كان يظن ان تنتهي حياة ذلك العادل المحب لرعيته بضربة خنجر ولكن ذلك حتى يعلم الناس حقد الشعوبيين على القومية العربية ، فان عمر اذا كان قد ارضى العرب بما صنعه وارضى العجم بما افاض عليهم من العدل فقد اغضب كبراءهم وذوي السلطان عليهم لانه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم الامر الذي ادى الى ان يقتله رجل اسمه فيروز ويلقب بابي لؤلؤة الفارسي الشعوبي .

وتحدثنا المصادر التاريخية : ـ ان اول مخطط هدام للقضاء على القومية العربية قام بوضعه (عبد الله ابن سباء) المعروف « بابن السوداء » وقد ولد هذا اليهودي الحاقد في مدينة صنعاء باليمن وتثقف بالثقافة الفارسية واظهر اسلامه لينتقم من المسلمين ويظل الناس وكان يصبغ مبادئه الهدامة بصبغة دينية حتى يضلل بها عامة الناس فكان يقول : ـ لقد عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد ، وبذلك وضع مذهب الرجعة اي رجعة محمد كما روج بين المسلمين نظرية الحق الالهي التي اخذها من الفرس الذين احتلوا قبل الاسلام بلاد اليمن موطنه الاصلي .

وقد هيأ ابن سباء العقول الى الاعتقاد بان عثمان ابن عفان اغتصب الخلافة واخذ يؤلب الناس عليه ويدعوهم الى الثورة على خلافة عثمان بن عفان وبعث دعاته لنشر هذه المبادىء الهدامة بين عامة الناس وقد نجحت دعوة ابن السوداء في البصرة والكوفة وفي مصر ولم تنجح في الشام

وحقق ابن سباء اليهودي الهدام ما كان يرمي اليه من تاليب الولايات العربية على الخليفة عثمان بن عفان وقد بلغت دعوته الغاية منها حيث انضم كثير من اصحاب النفوذ والجاه اليه مما ادى الى قتل الخليفة عثمان بن عفان بعد ان حاصره الثوار في داره 22 يوما ، فكان ذلك اول فصول هذه المأساة وما اعقبها من نشوب الحروب الاهلية في البلاد العربية واخذت الكوارث الدامية تحل بالامة العربية الواحدة تلو الاخرى ، منها واقعة الجمل التي حدثت في جوار البصرة بين انصار عثمان بن عفان وبين الخليفة

علي بن ابي طالب قتل في هذه الواقعة (10) آلاف من شجعان العرب ، وليت الامر وقف عند الحد بل اخذت الحروب الاهلية بين العرب تتعاقب بفضل الشعوبيين والخرق يتسع بين العرب الذين حملوا راية الاسلام فحدثت حرب صفين بين الخليفة علي بن ابي طالب وبين معاوية بن ابي سفيان المطالب بدم عثمان ، ولم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة امرها الا مقدمة لما هو اشد منها هولا هو الحرب في صفين . انتهت واقعة صفين التي قتل فيها من شجعان العرب وامجادهم تسعون الفا ، وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تاريخها . ومما يزيد الاسف ان هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني او رفع حيف بالامة انما كانت لنصرة شخص على شخص وقد نتج عن حرب صفين احداث محزنة ومؤسفة حيث انها ادت الى البلبلة والانقسام في صفوف الامة العربية . فقد عاد الشاميون من هذه الحرب الاهلية الى دمشق وانصرف العراقيون الى العراق ولكن شتان بين رجوع اهل الشام وبين اهل العراق عاداهل الشام متفقي الكلمة ورجع اهل العراق وقد وقع الخلاف بينهم ودب الانقسام الى صفوفهم ولقد اقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسيوط مما ادى الى قيام حزب جديد اطلق على نفسه (الخوارج) ثم اصبحنا امام ثلاثة احزاب بعد ان كنا امام حزبين اثنين . اولا حزب الشيعة ، ثانيا حزب الامويين ، ثالثا حزب الخوارج، واخذت هذه الاحزاب الثلاثة في التطاحن مما ادى الى اضعاف مقدرة القومية العربية ومناعتها لصد العدوان الداخلي الذي يقوم به الرتل الخامس فكان نفوذ فرق الزنادقة من مجوسية ومزدكية يمتد في فسيح البلاد الاسلامية للكيد ونشر الفوضى تحت شعارات وبراقع مختلفة الالوان حتى نمت الاحزاب الهدامة على حساب القومية العربية .

وكان الامويون قد جردوا السيف لهذا الخطر الداهم ولذلك تواترت الشكاوي على مثل والي العراق زياد بن ابيه وخلفه الحجاج بن يوسف الثقفي لان ولايتهما كانت في قلب الفتنة (العراق) وفي مهب ريحها فلما زالت الدولة الاموية بدسائس الشعوبية الماكرة ووجد الزنادقة والاحزاب الشعوبية الهدامة مجالا واسعا لبث سمومهم وهدم كيان القومية العربية احس الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور بالخطر فاعمل السيف في ارباب كابي مسلم الخراساني وحزبه، الا انه لم يتفرغ لها التفرغ الكامل فقضى والدولة العباسية مهددة بالزوال ، وتناول السيف خليفته المهدي ثم ابنه الهادي ثم اخوه الرشيد .

ولما وقع الشقاق والخلاف بين الاخوين الامين والمامون وجد الزنادقة والاحزاب الهدامة الاخرى متنفسا آخر فازداد نشاطهم . ومن اخطر الحركات التي انبثقت لهدم الاسلام والقضاء على القومية العربية وسحق تعاليم الدين كلها سعيا الى تحطيم السلطة السياسية التي تقوم على هذه التعاليم ـ تلك الحركة التي تزعمها رجل كان اذكى واخطر من ابن سباء ، وهذا الرجل هو المدعو « عبد الله بن ميمون القداح » وهو ابن فقيه ملحد من جنوب فارس ، وكان ميمون بن ديصان امام جماعة من الملحدين يزيفون الاحاديث وينشرون في العامة مبادىء الانكار والهدم والاباحة ويظهرون في نفس الوقت تشيعا لآل البيت لاخفاء مقاصدهم الحقيقية ، وما كاد ابن ميمون ينظم جمعيته السرية الهائلة في جنوب فارس حتى بعث بدعاته الى جميع الاقطار العربية يبثون مبادىء التقويض والهدم والتبشير بالمهدي المنتظر . وكان داعيته في العراق رجلا يسمى « الفرج بن عثمان القاشاني » ويعرف « بذكرويه » وهو فارسي من مدينة قاشان ، وكان يبث الدعوة سرا ثم نهض في سنة 278 هجرية رجل من اتباعه داعية في الاسهواز والدس بمكان يعرف بالنهرين على مقربة من الكوفة يبث الدعوة جهرا فاستجاب له جمع كثير ولقب بـ (قرمط) وكان يدعو الى خروج المهدي المنتظر الذي يملأ الارض بعدله وكان يأخذ من كل واحد من اتباعه دينارا للامام وجعل عليهم اثني عشر نقيبا سماهم الحواريين ، ولما علم عامل الناحية بامره قبض عليه وحبسه نفر من سجنه واختفى حينا وازداد انصاره تعلقا به ، وقالوا انه رفع الى السماء ثم ظهر في ناحية اخرى من الكوفة وعكف على بث دعوته ثم فر الى الشام واختفى بعد ذلك ولم يقف له احد على خبر ونشأ هذا المذهب الهدام الجديد في انحاء الكوفة واطلق على انصاره (القرامطة) نسبة الى داعيتهم قرمط .

وهكذا قام حزب القرامطة على الشيوع والاباحة فقد بدأ قرمط يجمع من انصاره الضريبة العامة بنسب صغيرة وبنسب كبيرة ، ثم الغى الملكية الفردية ثم قرر شيوع المرأة وغيره من صنوف الاباحة القائمة على استغلال اخس الشهوات البشرية وبذلك نظم مجتمعا شيوعيا وسرعان ما تحول القرامطة الى عصابة هائلة من السفاكين والاشقياء تقتل خصومها وتستحل اموالهم واعراضهم وتنشر الدمار والرعب

فيما حولها ، وقد اجتاحت دعـوة القرامطة انحـاء البحرين والبصرة والاحساء وعمان والجزيرة ، وامتدت الى سوريا والحجاز ، وبينما كان القرامطة يسيرون بانفسهم الى الفناء من جراء المعارك الطاحنة كانت دعوة عبد الله بن ميمون السرية تجتاح بلاد اليمن وتبشر بقرب ظهور المهدي فانتشرت الدعـوه بين القبائل بسرعة واغاروا على من حولهم من القبائـل بالسبي والنهب والقتل وارسلوا اموالا كثيرة الى ولد ابن القـداح ثم انتقلت هذه الدعـوة الى افريقيـة وانتشرت الدعوة فى قبائل المغرب وفى مصر ثم ظهر حزب ثوري سري هدام وهو اخطر حـزب عرفـه الاسلام ، وهذا الحزب هو (الطائفـة الاسماعليـة والباطنية) استمدت مبادئها من تعليـم ميمـون بن ديصان وولده عبد الله ومن القرامطـة ولبثت هـذه الطائفة مدة قرن ونصف قرن ارعبت خلالهـا الدول الاسلامية من فارس الى الشام وحشدت جموع البسطاء من العامة باسم الدين لتحقيق الاغراض السياسيـة واعتمدت فى محاربة خصومها على الاغتيال الخفـي المنظم باكثر مما اعتمدت على الحرب العلنية ، وكانت القومية الفارسية تعتمد على الدعوة الثورية هدفـت بثوراتهـا المتعاقبة الى تحطيم نير الدولة العباسية واسترجاع حريتها .

ولما ولي المعتصم الخلافة وكانت امة تركيـة اهمل العنصر العربي والفارسي واعتمد على الاتراك الذين اتخذهم حرسا له واسند اليهم مناصب الدولة كما فعل اخوه المأمـون مع الخراسانيين . وكان المعتصم اول خليفة عباسي اعتنى باقتنـاء غلمـان الاتراك فبعث الى سمرقند وفرغانة لشرائهم وبذل فيهم الاموال الطائلة والبسهم انواع الديباج ومناطـق الذهب وكان غلمان الاتراك يتدفقون سنة بعد سنـة على اسواق بغداد حتى كثر عددهم ولم يلبث هؤلاء ان اصبحوا آفة على اهل بغداد الذين عانوا من عنتهـم وجورهم شيئا كثيرا .

وتحدثنا المصادر التاريخية ان المعتصم كان قد اقصى العرب عن مناصب الدولة المدنية والعسكرية وعن ديوان العطاء واتاح بذلك الفرصة لغلمان الاتراك فزاد نفوذهم واصبحوا خطرا على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية . وقد ادى ظهور العنصر التركي الى تزايد قوة هذا العنصر الدخيل على البلاد وضعف العرب وتفرقهم الى قبائل وبطون مما ادى الى هجرة عدد كبير منهم من المدن والقصبات حيـث فضلوا الاقامة والعيش فى الارياف والصحاري تخلصا ممـا كانوا يلقونه من غلمان الاتراك المرتزقة من اهانـات وكبت للحريات ومصادرة للاموال والممتلكات ، ونتج عن ذلك ان غلمان الاتراك وجدوا انفسهم منفرديـن بالحكم والسلطان واصبحوا هم الآمريـن فى الدولـة العباسية ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعدى الى ان امتدت ايديهم على حياة الخلفاء واموالهم .

فعندما استلم المتوكل الخلافة وحاول ان يكف ايدي غلمان الاتراك عن التدخـل فى شؤون الدولـة وسياستها قتلوه وصار ابنه المنتصر الذي اشتـرك معهم فى قتله طوع بنانهم ، واصبحت الدولة العباسية ميدانا للفوضى والدسائس وغدا امر تولية الخليفـة وعزله او حبسه او قتله فى ايدي (غلمان الاتراك) .

ومن هنا بدا ظهور طوائف الملوك فى الوطن العربي المستقلة وشبه المستقلة فى اطراف الدولة العباسية كدولة الصفارية والسامانيـة والغزنوية والعلوية فى الشرق العربي والدولة الاغلبية بتونس والفاطمية ببلاد المغرب والطولونية والاخشيدية بمصر وبنـو امية بالاندلس ودولة الزيدية باليمن .

وبينما كان الشعب العراقي العربي ينظر الى هذه الكوارث والمآسي التي حلت بالعـراق على ايـدي الشعوبيين بكل يقظة وحذر لكـي يتخلص من هـذه الطغمة المرتزقة اذا بسيل جارف آخر من الشعوبيين يتدفق صوب بغداد وهو عنصر جديد من بلاد الديلم يعرف باسم (آل بويه) فانتزعوا الحكم والسلطان من غلمان الاتراك ببغداد وجعلوا العراق ملكـا لاحدهـم يتصرف فيه كما يشاء ، والخليفة الشرعي تابـع في قصره يأتمر بأمـره . وقد ارتكب البويهيـون اكبـر جريمة فى حق الشعب العراقي اثناء سيطرتهم على مقدرات العراق بتشجيعهم الطائفية بين السكان .

وتحدثنا المصادر التاريخية ان معـز الدولـة البويهي الذى كان يسيطر على مقدرات العراق اصدر امرا فى بغداد فى العاشرة من شهر محرم سنة 352 هـ يقضي بالزام الناس ان يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الاسواق والبيع والشراء وان يظهروا النياحة (الطبك) ويلبسوا قبابا معلوها بالمسوح (الاكفان) وان يخرج النسـاء ناشرات الشعور ومسودات الوجوه قد شققن ثيابهـن يدرن فى البلد نائحات ويلطمن وجوههن على الحسن ابن علي ، فعمل الناس ولم يكن للخليفة العباسي قدرة على منع هذه البدعة السيئة التي لم يكن لها اي صلة بالدين ، وقد بذل البويهيون جهودا عظيمة لنشر روح الطائفية فى جميع ارجاء هذا الوطن ولبثوها بصـورة

رسمية الامر الذى ادى الى انقسام الشعب العراقي العربي الى طوائف متنازعة متنافرة ، ولا تـزال روح الطائفية البغيضة تنخر جسم الشعب العراقي العربي المسلم الى يومنا هذا . وفى اوائل القرن الخامس الهجري ظهر عنصر جديد من الشعوبيين المرتزقة جاءوا من وسط آسيا متجهين صوب العراق وهم الغز من الاتراك وعلى راسهم البيت السلجوقي زحفوا الى بغداد وامتلكوها وازالوا عنها آل بويه واصبح آل سلجوق هم المسيطرين على مقدرات الدولة العباسية وانتشر الغز فى طول البلاد وعرضها يدمرون القرى والقصبات ويصادرون اموال الناس دابهم القتل والنهب وحرق القرى وسفك الدماء مما ادى الى خراب آلاف القرى فى انحاء العراق ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى خرج سيل المغول الجارف واجتاح الدولة العباسية وازالها من الوجود ، وقد كان احتلال المغول للعراق فى القرنين الثالث والرابع عشر الميلادي وسقوط الخلافة العباسية فى بغداد الضربة القاضية على العراق ، وفى هذه الحقبة التاريخية التي مرت على العراق والتي استمرت عدة قرون كان الشعب العراقي العربي يتلقى ضربات متوالية من الشعوبية المجرمة ولو ان اي شعب من شعوب العالم اصابه ما اصاب الشعب العراقي العربي المسلم الباسل المؤمن بربه الشعوبيون اثناء سيطرتهم على مقدرات العراق لزال من عالم الوجود واصبح فى عداد الامم المندثرة ، ولكن الشعب العراقي العربي المسلم الباسل المؤمن بربه وقوميته صمد وقاوم مقاومة المستميت فى سبيل صون كيانه وعروبته . وقد وجد له عرينا يحتمي فيه ليصد الضربات الموجهة ضده من هذه الذئاب المفترسة فاختار البطائح (الاهور) الواقعة فى العراق فلاها يحتمي فيها ويتحصن بالمياه والسفن ضد السلطان البويهي وصارت تلك البطائح معاقل حصنة والف زعماء العرب مشيخات يتولى ادارة كل مشيخة منها زعيم من العشيرة اثناء سيطرة آل بويه ثم مدة حكم آل سلجوق التركمانيين الزاحفين من اواسط آسيا (بلاد ما وراء النهر) .

ولما استعاد العباسيون بعض نفوذهم فى بغداد رجع سكان البطائح الى طاعة بني العباس واحترموا النظام واخذوا يؤدون الخراج الى عمال الخلفاء العباسيين كما كان الامر من قديم الزمان وازدادت الهجرة من المدن والقصبات الى البطائح مرة ثانية عندما اكتسحت جيوش المغول المدن العراقية تخلصا من القتل والنهب ، وعاد سكان البطائح الى الانفصال عن حكومة المغول فى بغداد ، والف زعماء البطائح مشيخات وتحصنوا فى قراهم المحاطة بالمياه وازداد نفوذ الشيوخ والزعماء الذين كانوا يسيطرون على البطائح ، وبمرور الزمان نشأت الاقطاعيات فى العراق واصبحت كل مشيخة مؤلفة من عدة قرى يسكنها ابناء عشيرة واحدة مستقلة عن المشيخات الاخرى ، واصبح شيخ القبيلة هو الحاكم بامره يدير شؤون عشيرته وفق التقاليد والعادات الموروثة منقطعة عن العالم الخارجي يعيشون فيها على زراعة الارز والدخن بطريقة ابتدائية وتربية الماشية عراة حفاة تفتك بهم الاوبئة والامراض العفنة ويستولى الجهل على عقولهم محرومين من كل وسائل الحياة وبقوا على هذه الحالة السيئة الى ما بعد فتح الدولة العثمانية للعراق على يد السلطان سليمان القانوني فى سنة 941 هجرية (1543 ميلادية) وكان حكم الولاة العثمانيين نافذا فى المدن والقصبات ، اما القبائل التي كانت تقطن على ضفاف الانهر وفى البطائح من جنوب بغداد حتى الخليج العربي فانها كانت مع ولاة الدولة العثمانية فى حروب وثورات دامية مستمرة. ولقد حاولت الجيوش العثمانية مرارا اخضاعهم بارسال الحملات العسكرية الواحدة تلو الاخرى زهاء ثلاثة قرون متواصلة لم تحقق الا بعض نصر موقت ، اذ ما كانت تعود الحملة العسكرية الى قواعدها بعد حملة تاديب عارمة حتى يثور سكان البطائح مرة اخرى ويعلنوا عصيانهم ضد الدولة العثمانية هذا من جهة ، ومن جهة اخرى شرع ولاة بغداد يزرعون بين سكان البطائح روح التفرقة والتباغض فكانوا ينعمون على بعض الشيوخ والزعماء منهم بالالقاب (الباشوية) ويغرقون عليهم العطايا من اراض واموال دون الآخرين لبث روح التنافس والحسد بينهم فيلجأون الى ضرب بعضهم بعضا .

وفى خلال هذه الحقبة الطويلة من تاريخ العراق ظل سكان البطائح منقطعين ــ او يكادون ــ عن العالم الخارجي محرومين من كل وسائل التمدن الحديثة صحية كانت ام ثقافية ام اجتماعية محتفظين فى الوقت نفسه بسجاياهم العربية الخالصة كالكرم والشجاعة والذكاء الفطري وسرعة الخاطر وقوة الملاحظة والسليقة الشعرية والاخذ بالثار وحماية الخارجي محرومين من كل وسائل التمدن الحديثة مستمر مع الدولة العثمانية وتنكر دائم لها حتى انحسر ظلها عن العراق على اثر احتلال الجيش البريطاني للعراق اثناء الحرب العالمية الاولى التي نشبت سنة 1914 .

الإتباع في العربية

الدكتور حسن نصار

(جامعة القاهرة)

الاتباع ظاهرة لغوية عامة لا تنفرد بها اللغة العربية ، بل تنبه من عرف غير العربية من القدماء الى وجودها فى هذه اللغات ، فقال احمد بن فارس (1) : « وقد شاركت العجم العرب فى هذا الباب » . ونستطيع نحن ان ندرج تحت « العجم » من نعرف لغته من الشعوب الاوربية مثل الانجليز والفرنسيين .

وفطن اللغويون منذ عهد مبكر الى ظاهرة الاتباع . فأورد ابو عمرو بن العلاء رأس مدرسة البصرة امثلة منها . جاء فى كتاب ابي الطيب اللغوي (2) : « قال ابو عمرو : سمعت اعرابيا يقول لآخر : انك لتحسب الارض علي حيصا بيصا ، بكسر اوله .. وقال ابو عمرو : يقال : رجل طب لب . وهو العالم .. » وذكر ابو الطيب ايضا مثالا منه عن رأس مدرسة الكوفة ، قال (3) : « حكى اللحياني عن ابي جعفر الرؤاسي انه يقال للرجل : انه لمجنون مخنون .. »

وطبيعي ان يلتقف تلاميذهما عنهما هذه الامثلة، ويسعوا وراء نظائرها ، ثم يمنحوها تلاميذهم . فنرد فى كتب الاتباع اسماء يونس بن حبيب والاصمعي وابي زيد وابي عبيدة والكسائي وقطرب وابي عمرو الشيباني والفراء والاحمر واليزيدي وابن الاعرابي ، وتشير المعاجم الى ما تعالج من امثلته ، منذ العين للخليل . بل افرد ابن دريد فى جمهرته فصلا للاتباع (4) .

وبالرغم من ذلك ، اختلف العلماء فى تصورهم للاتباع نتيجة اختلافهم فى الصفات التى اشترطوا توافرها فى الالفاظ التى يمكن ادخالها فيه . ويحسن بنا ـ حين نرغب فى تتبع هذه الشروط ـ ان نعالجها وفق التصنيف التالي :

1 ـ من حيث المعنى : ذهبت جماعة من المتقدمين الى ان اللفظ التابع لا معنى له اصلا . واقدم من وصلت الينا منه اقوال تذهب هذا المذهب ابن الاعرابي (231 هـ). قال ثعلب فى اماليه (5): قال ابن

(1) الصاحبي 226 . الثعالبي : فقه اللغة 566 . السيوطي : المزهر 1 : 414 .
(2) الاتباع 14 ، 77 .
(3) الاتباع 39 .
(4) 3 ـ 429 .
(5) السيوطي : المزهر 1 : 414 ، 416 . وانظر احمد بن فارس : الصاحبي 226 ، والاتباع 28 .

الاعرابي : « سالت العرب : اي شيء معنى شيطان ليطان ؟ فقالوا : شيء نتد به كلامنا » : نشده . وتابعه الحسن بن بشر الآمدي (371 هـ) الذى اعلن (6) : التابع لا يفيد معنى اصلا ، ولهذا قال ابن دريد : سالت ابا حاتم عن معنى قولهم : بسن ، فقال : لا ادري ما هو » . وسار وراءهما فى هذا الطريق ابن الدهان (7) الذى راى ان التابع غير مبين معنى بنفسه عن نفسه . ويكاد هذا القول يكون ما قاله فخر الدين الرازي، وان صب كلامه على انكار الترادف بين التابع والمتبوع حين قال (8) : « ظن بعض الناس ان التابع من قبيل المترادف لشبهه به. والحق الفرق بينهما ، فان المترادفين يفيدان فائدة واحدة من غير تفاوت ، والتابع لا يفيد وحده شيئا ، بل شرط كونه مفيدا تقدم الاول عليه » .

وخالفت جماعة اخرى من ذكرتهم ، ولم يشترطوا عدم المعنى ، اذ راوا ان التابع قد يكون له معنى وقد لا يكون . وينتمي الى هذه الجماعة ابو علي القالي ، وابو الطيب اللغوي ، واحمد فارس ، وابن بري ، والتاج السبكي . قال الاخير يرد على الآمدي (9) : « التحقيق ان التابع يفيد التقوية ، فان العرب لا تضعه سدى . وجهل ابي حاتم بمعناه لا يضر بل مقتضى قوله : انه لا يدري، معناه ان له معنى ، وهو لا يعرفه » .

وعندما نتتبع امثلة الاتباع عند ابي الطيب اللغوي نخرج بصور مفصلة محددة . فاننا نجد عنده امثلة لا معنى للتابع فيها ويمنحها اسم الاتباع لانها الاصل فيه . قال (10) : « قال قطرب : يقال : بسلا واسلا : اي حرام محرم . والبسل هاهنا الحرام ، والاسل اتباع . قال الشاعر :

ايثبت ما قلتم ، وتلغى زيادتي
يدي ــ ان اسيغت هذه لكم ــ بسل

اي بيعني التى اعطيتكم يدي بها حرام عليكم.. وانه لكثير بثير بدير بجير : كله اتباع .. ويقال : مكان عمير بجير . فالعمير من العمارة ، فعيل بمعنى مفعول ، وبجير اتباع .. » .

ونجد امثلة اخرى للتابع فيها معنى معروف ، غير انه لا يستعمل بصيغته هذه وبمعناه هذا منفردا، بل لا بد ان يجتمع مع اللفظ الذى يتبعه . ويمكن ان نقسم هذه الامثلة الى قسمين : (ا) قسم يكون فيه التابع مرادفا للفظ المتبوع . قال (11) : « ويقال يوم مكيك اكيك ، ويوم عك الك : اذا كان شديد الحر . والاكيك بمعنى المكيك ، الا انه لا يفرد . قال الراجز:

يوم مكيك يعصر الجلمودا
يترك حمران الرجال سودا

وليلة فاسدة غمودا
سوداء تغشي النجم والفرقودا

.. وانه لكثير بثير .. والبثير من قولهم : ماء بثر : اي كثير . الا انه لا يقال : شيء بثير اي كثير الا على وجه الاتباع .. ويقال : مائق دائق ، من قولهم : رجل مدوق : اي محمق والدوق الحمق ، وكذلك الموق . يقال : ماق الرجل يموق موقا . قال الراجز :

يا ايها الشيخ الكثير الموق
ام بهن وضح الطريق

ولا يتكلم بالدائق مفردا . ويقال : انه ليموق موانة ومؤوقا ، وداق يدوق دواقة ودؤوقا ايضا ». (ب)والقسم الثاني لا يرادف فيه التابع متبوعه بل يختلف معناهما ، غير انه لا يفرد ايضا بصيغته ومعناه المرادين فى الاتباع . قال (12) : « ويقال : شحيح انيح : من قولهم : انح بحمله يانح انوحا : اذا تزحر به من ثقله ، ولا يفرد الانيح .. ويقال انه لشحيح بحيح ، وهو من البحة . ولكن لا يجوز افراده .. تقول العرب : لا بارك الله فيه ولا تارك . ولا يقولونه الا هكذا . فهو ــ وان كان ماخوذا من الترك ــ فلا معنى له فى هذا الموضع الا الاتباع »

(6) المزهر 1 : 15 4. (7) المزهر 1 : 424 . (8) المزهر 1 : 415 (9) المزهر 1 : 416 .
(10) 5،13،20 . (11) 8 ، 13 ، 42 . (12) 7 ، 17 ، 28 .

ولا يعطينا كتاب احمد بن فارس مثل هذه الصورة الواضحة . ولعل سبب ذلك انه لم يفرده للاتباع . بل جعله ـ كما يبين من عنوانه ـ « للاتباع والمزاوجة » . وقد يتبادر الى الذهن ان المؤلف يعدهما شيئا واحدا . ولكن ذلك غير صحيح. فهو يعلن في السطر الاول من كتابه (13) : « هذا كتاب الاتباع والمزاوجة ، وكلاهما ... » فيفرق بينهما، كذلك يورد في داخل الكتاب من التعليقات ما يؤكد هذه التفرقة . قال (14) : « قال الاصمعي: رجل خياب ثياب . قال : خياب : من خاب ، وثياب تزويج ، وهو يصلح ان يكون اتباعا » .

ولم يقتصر المؤلف على المزاوجة . بل اورد في كتابه امثلة قليلة مما سماه «الاسجاع» و«الامثال». على الرغم انه اعلن في آخر الكتاب انه خصص لها كتابا. قال (15) : « وسترى ما جاء في كلامهم في الامثال ، وما اشبه الامثال من حكمهم على السجع ، في كتاب «امثلة الاسجاع» ، ان شاء الله تعالى ». وعلى الرغم انه يعترف ان الاسجاع ليست من صنف الكتاب ، قال (16) : « ومن الاسجاع . وليس من هذا الباب : قول بائع الدابة : برئت اليك من الجماح والرصاح ».

واورد ما سماه تأليفا للكلام ، وتاكيدا ، دون ان يبين ماذا يقصد من ذلك ، وما صلته بالاتباع ، قال (17) : « ومما يراد به تأليف الكلام قولهم : ارب فلان ، والب ، فهو مرب وملب : اذا اقام ». وقال (18) : « لا افعله سجيس عجيس : يريدون الدهر . الاصمعي : لا آتيك سجيس عجيس : اي الدهر ، وسجيسه : آخره ، ومنه قيل للماء الكدر : سجيس ، لانه آخر ما يبقى . والعجيس تاكيد ، وهو في معنى الآخر » . بل اكثر من ذلك اورد ما ليس باتباع ، وما ليس من الكتاب . قال (19) : « ومن ذلك ـ وليس باتباع ـ رجل اشق اشق خبق: للطويل » . وقال (20) : وذرق الطائر ومرق وزرق وخذق ، وليس من الباب » .

يبين لنا هذا ان كتاب ابن فارس يضم خليطا من العبارات ، حار فيها المؤلف نفسه ، واعطاها اسماء متعددة وادخلها في كتابه ، وهو يؤمن ان بعضها على الاقل لا يتصل بموضوع الكتاب . ولا يقف الامر عند هذا بل نجد الصورة المبهمة المختلطة نفسها فيما سماه بالاتباع . اذ نستنتج من بعض اقواله ان التابع لا معنى له . قال (21) : « يقولون: هو مليح قزيح ، وهذا اتباع . وقد يكون من اقراح القدر وهي الافحاء ... يقال جائع نائع . الكسائي: هو اتباع . ويقال : هو العطشان .. ابو زيد : هو تافه نافه : اي حقير ، كذا قاله في الاتباع . وقد يمكن ان يقال : اشتقاقه من نفهت نفسه ، اي اعيت وكلت » .

ونستنتج من بعضها الآخر ان التابع له معنى معروف ، ولا يهم ان يكون هذا المعنى مرادفا لمعنى المتبوع او مختلفا عنه . قال مثلا (22) : «اللحياني : ما عنده على اصحابه تعريج ولا تعويج : اي اقامة ..... وفلان لا يغير ولا يمير ، يقال للميرة الغيرة ايضا .. ويقال ذهب حبره وسبره . الحبر والسبر: الجمال والبهاء » . وقال (23) : تقول العرب : انه لسائب لائب . فالسائب : الجائع . واللائب : المعيي الكال ... ويقولون : خب ضب . فالضب : البخيل الممسك . والخب : من الخب ... وما عنده

---

(13) 28 . (14) 29 . (15) 70 . (16) 37 ، 43 . (17) 30 . (18) 49 .

(19) 60 . (20) 61 . (21) 35 ، 54 ، 68 . (22) 34 ، 42 . (23) 29 ، 52 .

فيض ولا فيض : اي كثير ولا قليل . ويقال : الاعطاء والمنع » .

2 ـ من حيث الصورة : اقدم من تناول هذا الجانب صراحة ابو علي القالي ، الذى فطن الى اتحاد الحرف الاخير فى التابع والمتبوع ، او ما سمى بعد ذلك اتحاد الروي . قال عن العرب (24) : «مذهبهم فى الاتباع ان تكون اواخر الكلم على لفظ واحد مثل القوافي والسجع » .

ولكن ابا الطيب وابن فارس رويا اتباعا لم يلتزم الروي الواحد . قال ابو الطيب (25) : « يقال فى الدعاء على الرجل : جوعا وجودا وجوسا . فالجود هو الجوع بعينه . وقولهم جوسا اتباع » . وقد نبه ابن فارس على هذه الظاهرة الشاذة عندما اورده ، فقال (26) : «ومما لم يجيء على روى الاول جوعا له وجودا وجوسا » . ودفعه هذا الى عدم اشتراط الروى الواحد ..

وفطن ابن فارس ايضا الى ان اكثر الاتباع يتماثل التابع والمتبوع فيه فى الوزن وان كان ذلك ليس بالشرط الواجب . فقد اورد فى الاتباع (27) : « يقولون : وهو لك ابدا سمدا سرمدا .. » واكثر ابو الطيب من امثلة الاتباع غير المتماثل الوزن. مثل (28) : « يقال : لا دريت ولا اليت . مقصور اوله .... ويقال : جوعا ديقوعا ، اذا دعي على الانسان .. ويسب الرجل فيقال : رغما دغما شنغما . وفعلت ذلك على رغمه ودغمه وشنغمه ». ولذلك يحق لنا ان نقول ان تاج الدين السبكي اخطأ حين قال (29) : « فالتابع من شرطه ان يكون على زنة المتبوع » .

ويؤكد لنا هذا ان احسن تعريف ينظر الى هذا الجانب للاتباع هو ما جاء به احمد بن فارس ، واخذه منه الثعالبي حين قال (30) : « الاتباع : ان تتبع الكلمة على وزنها او رويها اشباعا وتوكيدا » . فاذا كان اتحاد الروى غير لازم ، واتحاد الوزن غير محتم ، فان الاتباع لا يخلو منهما معا .

3 ـ من حيث التعبير : اجمع الذين تعرضوا للاتباع ان اللفظ التابع لا ينفصل عن المتبوع ، سواء كان له معنى او لم يكن ، ولا يجيء فى التعبير منفردا مطلقا . واتخذ ابو الطيب من انفراد الكلمة الثانية المقياس الذى اعتمد عليه فى الفصل بين الاتباع والتوكيد . فما لم ينفرد فيه اللفظان سماه اتباعا . وما انفرد فيه اللفظ الثاني سماه توكيدا . ولكن ابن فارس اقر فى مرة واحدة وجود اتباع ينفرد . قال (31) : « ويقال : خراب يباب . وقد يفرد اليباب . قال عمر بن ابي ربيعة :

كست الرياح جديدها من تربها
دفقا واصبحت العراص يبابا

فهذا اتباع الا انه افرده » . اما ابو الطيب فقد تخلص من هذا المأزق بان جعل امثاله فى التوكيد (32) ..

واشترط الكسائي وابو عبيد وابن بري الا يعطف الاتباع بأداة . قال ابو عبيد فى غريب الحديث (33) : «قال الكسائي .. واما حديث آدم عليه السلام : انه استحرم حين قتل ابنه ، فمكث مائة سنة لا يضحك . ثم قيل له : حياك الله وبياك . قال وما بياك ؟ قيل : اضحكك . فان بعض الناس يقولون فى بياك : انه اتباع . وهو عندي ـ على ما جاء تفسيره فى الحديث ـ انه ليس باتباع . وذلك ان الاتباع لا يكاد يكون بالواو ، وهذا بالواو.. ومن ذلك قول العباس فى زمزم : هي لشارب حل

---

(24) الامالي 2 : 217 . (25) 35 . (26) 54 . (27) 38 . (28) 10 ، 42 ، 58 .
(29) المزهر 1 : 416 . (30) الصاحبي 226 . فقه اللغة 566 . (31) 29 . (32) 111 .
(33) المزهر 1 : 415 .

وبل . فيقال : انه ايضا اتباع وليس هو عندي كذلك لمكان الواو » .

وجاء في لسان العرب تعليقا على قولهم : جوعا ونوعا (34) : «قال (ابن بري) : والصحيح ان هذا ليس اتباعا لان الاتباع لا يكون بحرف العطف ، والآخر ان له معنى في نفسه ينطق به مفردا غير تابع ».

ولكن ابا الطيب اللغوي (35) رفض هذا الراي، ورد عليه ردا حسنا، معتمدا على مسلك العرب في تعبيرهم . فقد رآهم يقولون : هذا جائع نائع ، فدل على انه اتباع . ورآهم يقولون في الدعاء على الانسان : جوعا ونوعا ، فادخلوا الواو . فلو اعتمدنا عليه قلنا انه ليس اتباعا . ومحال ان تكون الكلمة الواحدة مرة اتباعا ومرة غير اتباع . اذن ليس الاعتبار بوجود الواو او عدمها .

ونستبين من دراسة امثلة الاتباع انه ليس من المحتم ان يتالف من لفظين فقط ، بل قد يتالف من ثلاثة فيقال (36) : انه لحسن بسن قسن . ولحمه خظا بظا كظا : وانه لقبيح شقيح لقيح . ويبدو انه تالف احيانا من اكثر . قال ابو الطيب (37) : « يقال في الكثرة : انه لكثير نثير بثير بذير عقير ، وعمير ايضا » .

4 ـ من حيث الغرض : اول من تعرض للغرض من الاتباع الكسائي ، واعلن انه يراد منه التوكيد قال (38) : « انما سمي اتباعا لان الكلمة الثانية انما هي تابعة للاولى على وجه التوكيد لها » . ويؤكد لنا صحة هذا القول الجواب الذي تلقاه ابن الاعرابي من العرب حيث سالهم عن معنى شيطان ليطان .

واتفق ابو علي القالي (39) مع الكسائي . غير انه يقصر التوكيد على نوع واحد من الاتباع ، ذلك الذي يكون فيه اللفظ التابع بمعنى المتبوع .

ووافقهما ابن الدهان ، وجعل الاتباع من قبيل التوكيد اللفظي ، واتى بالمثال التي تدعم رايه . قال السيوطي (40) : « قال ابن الدهان في الغرة في باب التوكيد : منه قسم يسمى الاتباع نحو عطشان نطشان ، وهو داخل في حكم التوكيد عند الاكثر . والدليل على ذلك كونه توكيدا للاول غير مبين معنى بنفسه عن نفسه ، كاكتع وابصع مع اجمع .. والذي عندي ان هذه الالفاظ تدخل في باب التوكيد بالتكرار ، نحو رايت زيدا زيدا ، ورايت رجلا رجلا . وانما غير منهما حرف واحد لما يجيئون في اكثر كلامهم بالتكرار .. »

واعلن السيوطي (41) وجود قوم يفرقون بين الاتباع والتوكيد . واعتمادهم في هذه التفرقة على امرين : اولهما ان الفاظ الاتباع تختلف عن اكتع لانها تجري على المعرفة والنكرة، على حين لا تجري اكتع الا على المعرفة ، ولانها غير مفتقرة الى تاكيد قبلها بخلاف اكتع . والثاني ان الاتباع ما لم يحسن فيه واو العطف . والتاكيد تحسن فيه الواو .

ويتفق مع هؤلاء تاج الدين السبكي الذي قال (42) : «الفرق بينه وبين التاكيد ان التاكيد يفيد مع التقوية نفي احتمال المجاز . وايضا فالتابع من شرطه ان يكون على زنة المتبوع والتاكيد لا يكون كذلك »

ونستطيع ان نضم اليهم ابا الطيب اللغوي لانه جعل المواد التي ادخلها في كتابه صنفين : الصنف الاول سماه الاتباع ، وهو ما لا ينفرد اللفظ فيه ابدا. وسمى الثاني التوكيد ، وهو ما يمكن ان يستقل لفظه الثاني بنفسه . وبرغم ذلك لم يكشف لنا ابو الطيب الغرض من الاتباع . ولعله تعرض لذلك في الجزء المفقود من مقدمته .

اما احمد بن فارس فراى ان الاتباع لا يقصد الى التاكيد وحده ، بل اليه والى ما سماه الاشباع

---

(34) مادة نوع . (35) 3 . (36) ابو الطيب 71 ، 72 ، 76 ، 77 ، 99 ، 96 ، 99 .
(37) 62 . (38) المزهر 1 : 415 . (39) الامالي 2 : 208 . (40) المزهر 1 : 424 .
(41) المزهر 1 : 424 ـ 25 . (42) المزهر 1 : 416 .

دون ان يحدده ، كما نستبين فى قوله الذى اوردته سابقا .

ويؤدي بنا هذا الى ان العلماء لم يتفقوا على تصور واحد للاتباع ، وان بعضهم اعطاه صفات حرمه بعضهم الآخر اياها . وكانت الثمرة الطبيعية لهذا ان اختلفت الاقسام التى وضعوها له . واقدم ما بين يدي من اقسام ما اضطلع به ابو علي القالي ، وكشف عنه فى قوله (43) « الاتباع على ضربين :

فضرب يكون فيه الثاني بمعنى الاول ، فيؤتى به توكيدا ، لان لفظه مخالف للفظ الاول .

وضرب فيه معنى الثاني غير معنى الاول » .

ويؤخذ على هذا التقسيم انه اهمل ما لا معنى له من الاتباع ، وهو الاصل . وصورة التابع . وقد فطن احمد بن فارس الى هذا النقص واراد ان يتجنبه . فجاء بتقسيمين لا واحد ، نظر فى الاول منهما الى صورة التابع ، وفى الثاني الى معناه . قال (44) : « هذا كتاب الاتباع والمزاوجة . وكلاهما على وجهين :

احدهما ان تكون كلمتان متواليتان على روي واحد .

والوجه الآخر ان يختلف الرويان .

ثم تكون بعد ذلك على وجهين :

احدهما : ان تكون الكلمة الثانية ذات معنى معروف . الا انها كالاتباع لما قبلها .

والآخر : ان تكون الكلمة الثانية غير واضحة المعنى ولا بنية الاشتقاق » .

ويمكن ان نأخذ على هذا التقسيم ايضا انه اهمل الوزن .

واشمل تقسيم للاتباع هو الذى قام به الاستاذ عز الدين التنوخي ، وقال فيه : « ان الاتباع يكون فى الاسماء وفى الافعال :

1) والاتباع الاسمى قسمان :

(أ) اما ان يكون التابع متصلا بالمتبوع وبمعناه، اوليس له معنى ، ثم لا يجيء مفردا .

وهو نوعان :

1 ـ نوع يجيء التابع فيه بلفظ واحد بعد المتبوع ، فهو حسن بسن ، وحار بار .

2 ـ نوع يجيء فيه لفظان بعد المتبوع ، نحو حسن بسن قسن ، ويكثر ان تكون الكلمة التابعة مبدوءة بميم نحو صقر مقر ، وشذر مذر .

(ب) واما ان يكون التابع متصلا بالمتبوع وله معنى ، ولا يجيء مفردا كما هو فى القسم نحو عطشان نطشان .

2) والاتباع الفعلي :

1 ـ والافعال فى هذ القسم الثاني قد تكون ظاهرة وبلفظ واحد نحو عبس وبسر .

2 ـ وقد تكون مقدرة كالمصادر التى قدرت افعالها نحو قبحا له وشقحا ..

وقد يجيء الاتباع الفعلي بلفظين تابعين نحو : لا بارك الله فى الشعوبي ولا تارك ولا دارك » .

والحق ان الاتباع ظاهرة لغوية ، واسعة النطاق متعددة الاشكال . كثيرة الاسباب والغايات . ويجب ان ننظر اليها فى ضوء من اشكالها الاخرى لنحسن رؤيتها ، ونتم تصورها ..

فاللغة عرفت الوانا اخرى من الاتباع ربما لا ترد على الخاطر فى هذه الدراسة ولكن ذلك واجب ، لانها ذات صلة بما نتحدث عنه الآن .

فقد اجرى العرب ـ وغير العرب ـ الوانا من الاتباع . فطن اليها اللغويون والنحويون والصرفيون، ودرسوها ، ولكنهم لم يربطوا بينها وبين ما بين ايدينا الآن من اتباع . ونحن حين ننظر فى هذه الالوان نستطيع للتيسير ان نصنفها فى فئتين : الفئة الاولى جرت فى المفردات اللغوية ، والثانية فى المركبات .

اما المفردات فقد خضعت لنوعين من الاتباع : نوع جرى فى حركاتها وآخر فى حروفها . وكلا النوعين يضم المطرد من الاتباع وغير المطرد .

---

(43) الامالي 2 : 208 .

(44) 28 .

اما الاتباع المطرد في حركات المفردات فيتمثل في عدة ابواب نحوية وصرفية .

فالقياس في جمع المؤنث السالم من الالفاظ الثلاثية الساكنة الوسط ان تتبع عينها فاءها . فما كان على فعلة جمع على فعلات مثل تمرة وتمرات ، وما كان على فعلة جمع على فعلات مثل حجرة وحجرات الا اذا كانت الكلمة معتلة العين او اللام . او كان المتكلمون من بني هذيل او تميم . فلهم احكام اخرى .

والقياس في الفعل الماضي عند بنائه للمفعول : ان كان مبدوءا بتاء زائدة ان يضم حرفه الثاني اتباعا لاوله مثل استخرج المعدن . والقياس في فعل الامر المأخوذ فعل يفعل ان تضم همزة الوصل فيه اتباعا لضمة عينه . .

والقياس عند بني تميم فيما كان على فعل الحلقي العين من الافعال كشهد ، والاسماء كفخذ ، والصفات كمحك ، وما كان على فعيل الحلقي العين ايضا كسعيد ورغيف ، القياس عندهم فيهما اتباع الفاء للعين فيقولون شهد وفخذ ورغيف .

وقال عيسى بن عمر : ان كل (فعل) كان ، فمن العرب من يخففه ، ومنهم من يثقله نحو عسر وعسر ، ويسر ويسر (بالسكون والضم) .

وان كان عين (فعل) المفتوح الفاء حلقيا ساكنا جاز تحريكه بالفتح ، نحو الشعر والشعر والبحر والبحر ، (بالسكون والفتح) ، وعد ذلك اتباعا لفتحة الفاء .

واما الاتباع غير المطرد في حركات المفردات فأمثل له بقولهم : المغيرة ، اتبعوا الميم للغين ، ومنتن : اتبعوا الميم للتاء ، وانبؤك : اتبعوا الباء للهمزة ، ومنذ : اتبعوا الميم للذال عند من قال : ان اصلها : من ذو ، وغيرها .

كل هذه الالوان من الاتباع : المطرد وغير المطرد، انما ارتكبتها العربية لتيسر على المتكلم النطق . فبدلا ان تقوم اجهزة النطق بعملين مختلفين في موضعين متقاربين مما قد يتطلب من الناطق جهدا او وعيا، كفته اللغة مؤونة ذلك بازالة الاختلاف وجعل العملين متشابهين . واذن فالغرض من الاتباع في مثل هذه الاحوال تيسير النطق وجعله عفويا .

واقصد بالاتباع في حروف المفردات ما يجري فيها حين تخضع لابدال او ادغام . فالقياس المطرد في نون انفعل من الافعال المبدوءة بميم جواز قلب نونها ميما متابعة لميم الفعل ثم ادغام الميمين معا . فنقول امحى في انمحى . والقياس المطرد في تاء افتعل من الافعال التي فاؤها دال او ذال او طاء او ظاء او ثاء او صاد او سين أو زاي او ضاد جواز قلب التاء الى حرف مماثل للفاء اتباعا لها ثم ادغام الحرفين فنقول ادان واذكر واظلم . .

وانما تجري اللغة ذلك لتجعل للحرفين الذين كانا مختلفين مخرجا واحدا ، فتيسر على الناطق ان ينطق بهما ، كما حدث في الالوان السابقة من اتباع الحركات .

كذلك تخضع المركبات لالوان مشابهة من الاتباع . اطرد منها ما كان في الفعل المضعف حين يلتقي بساكن آخر . فقد كان الاتباع احد المسالك التي سار فيها العرب للتخلص من التقاء الساكنين . فقالوا : شد الحبل ، وعز ، وعض ، باتباع لام الفعل لفائه . كذلك لجأ بعضهم الى الاتباع للتخلص من التقاء الساكنين في ميم الجمع ، فقالوا : عليهم الذلة. كقراءة ابي عمرو ، وعليهم القتال كقراءة حمزة باتباع الميم لحركة ما قبلها .

ومن الالوان غير المطردة في التخلص من الساكنين القراءات الشاذة (قم الليل) و (قد استهزيء) و (قالت اخرج) باتباع الحرف الساكن الاول لحركة الحرف الذي بعد الساكن الثاني . .

ومن غير المطرد ايضا قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله) باتباع الميم للحاء بعدها .

والمقصود بهذه الاجراءات ما قصد بما جرى في المفردات : التخفيف القائم على تماثل العمل الذي تقوم به اجهزة النطق .

وتخضع المركبات لاتباع يجري في الحروف ايضا. اشهر امثلته ما جاء في الحديث النبوي : « ارجعن مازورات غير ماجورات » ، فغير موزورات (من الوزر) حولت الى مأزورات اتباعا لمأجورات .

ومثاله ايضا الحديث النبوي في عذاب القبر : « لا دريت ولا تليت ولا اهتديت » فابدل واو (تلوت) ياء اتباعا ليائي الفعلين قبله وبعده .

ومثاله ايضا قولهم : انى لآتيه بالغدايا وبالعشايا. فجمعوا العشية على العشايا متابعة للغدايا .

كذلك تنوين الممنوع من الصرف فى قوله تعالى: (سلاسلا واغلالا) ، نونت سلاسل متابعة لاغلال .

ويمكن ان نجعل منه زيادة (ال) فى (يزيد) فى قول ابن ميادة :

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركا
شديدا باحناء الخلافة كاهله

فربما فعل ذلك اتباعا للوليد .

اذا نظرنا الى هذه الانواع من الاتباع لم نجد المقصود منها التخفيف ، كما كان الحال فى الانواع الاولى ، وانما المقصود المشاكلة الصوتية: اعني ان يكون لكل من اللفظين رنين متماثل ، فيقع فى الاذن عذبا ، وفى الوجدان حلوا . فالغاية هنا الجمال الصوتي ، الشبيه بما نجد فى السجع ، والقافية والجناس .

ونخرج من هذا بان الاتباع فى مجاله الاكبر يمنح الناطق خفة وسهولة ، وفى مجاله الاصغر يمنح السامع شعورا جماليا .

فاذا انتقلنا الى ما درسنا من الاتباع وجدناه يستفيد قليلا من المجال الاكبر ، وكثير من الجمال الصوتي .

ونحن حين نمعن النظر فى اسلوب الاتباع نجده يشبه اساليب اخرى تعرفها اللغة . فهو فى اصله صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل له، او ان شئنا الدقة التامة قلنا : صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل له ، او ان شئنا الدقة التامة قلنا : صوت لغوي يتبعه صوت آخر مماثل لآخر الصوت الاول . فهما صوتان متماثلان فى ختامهما ، وفى اكثر الاحيان فى القسط الاكبر من بنيتهما . فاذا ما اتفقا فى حرف واحد ، وجدناهما يتفقان فى حرف آخر غير انهما اختلفا فى موضعه ، فجعله احدهما اولا والثاني وسطا ، مثل قبيح شقيح ، وسليخ مسيخ ..

واقرب الامثلة على ما يشابه هذه الظاهرة ما يكون فى بابي الندبة والاستفهام . فالقاعدة فى المندوب ان يفتح آخره ثم يشبع الصوت به حتى تتولد الف مثل قولهم : وازيداه ، فان لم يمكن ذلك خوف اللبس اشبعت الكسرة فتولد ياء مثل واغلاميه، او الضمة فتولد واوا مثل واغلاميوه . فالمندوب يتلى بصوت مماثل لصوته النهائي دلالة على التفجع .

واذا رابك شيء فى كلام فاستفهمت عنه منكرا له ، جئت بزيادة فى آخر الكلام دلالة على ذلك . فان كان ما قبله مفتوحا ، كانت الزيادة الفا . وان كان مكسورا ، كانت الزيادة ياء . وان كان مرفوعا ، كانت الزيادة واوا . وان كان ساكنا ، حرك لئلا يلتقي ساكنان . لان هذه الزيادات مدات ، والمدات سواكن فتحركه بالكسر كما يحرك الساكن اذا لقيه الالف واللام الساكن . فاذا قال الرجل : رايت زيدا . قلت: ازيدنيه . فان قال : رايت عثمان . قلت اعثماناه ؟ لئلا يلتقي ساكنان . ويقول : قدم زيد . فتقول : ازيدنيه . فان قال : رايت عثمان . قلت اعثماناه ؟ فان قال : اتاني عمر . قلت : اعمروه ؟ فهذه الزيادة المماثلة للصوت المختومة الكلمة به دليل على ما يعتمل بنفسه من انكار .

واذن فقد كانت الزيادة فى باب الندبة دلالة على التفجع ، والزيادة هنا رمزا الى الانكار ، وكانت الزيادة فى البابين مماثلة للحركة التى تنتهي بها الكلمة التى تلحق الزيادة بها . واذن فهذه الزيادة دلالة على الحالة النفسية التى يعيش فيها المتكلم حين تفوه بها ..

والنتيجة الطبيعية لهذا ان اللغة العربية تلجا الى اتباع كلمة ما بصوت مماثل لنهايتها دلالة على ما يختلج فى وجدان المتكلم من مشاعر . وعلى ضوء من هذا نقول انما الاتباع رمز على حالة شعورية خاصة تتملك قائله : قد تكون اعجابا فى مثل حسن بسن ، وقد تكون غضبا فى الدعاء ... لا يهنم .. فمهما اختلف الشعور . فالاتباع رمز له ..

والاصوات التى اضافتها اللغة فى امثال الندبة والاستفهام الانكاري مبهمة ، لم تتخذ شكلا ، ولم تكتسب معنى ، بل بقيت على حالتها الاولى ، مجرد رمز مبهم . وقد وقف كثير من اصوات الاتباع عند هذه المرحلة ولم يتعدها الى مجال الوضوح . فاقر

العلماء انه لا معنى له . وحاروا فى بعضه اذ حاولوا ان يلصقوا له معنى ما . ولكن بعض هذه الاصوات تعدى هذه المرحلة . واكتسب معنى مستقلا . وبعضها الآخر اخذ من الفاظ معروفة المعنى . صلحت من حيث اصواتها لان تكون اتباعا . ولا شك ان امثال هذا النوع اكتسبت من الاتصال المعنوي بين التابع والمتبوع توكيدا للفكرة التى تعبر عنها . ولا شك ـ عندي ـ ان النوع الاول . المكون من تابع مبهم . اكتسب توكيدا ايضا من التماثل الصوتي بين التابع والمتبوع . لان المستمع غير المتنبه يظن انه سمع اللفظ الواحد مرتين . تحريرا وتوكيدا ..

وصفوة القول ان الاتباع ظاهرة لغوية جمالية : تدل على ما يعانيه المتكلم من انفعال . وتمنح المستمع متعة فنية . ويجب ان تدرس مع منيلاتها من الظواهر اللغوية التى لا يقصد المتحدث فيها الى الاخبار المجرد . ويرمي معه الى المشاركة الوجدانية ..

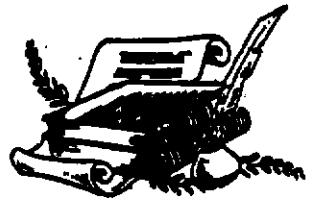

مُشكِلاَت اللغَة وَالمصْطلحَات

I

الدكتور يوسف الخوري

رئيس قسم الجيولوجيا .
(جامعة دمشق)

يثبت الواقع التاريخي ، ان الامة العربية تاتي في طليعة الامم التي كانت تنشر العلم والمعرفة على البشرية جمعاء . وذلك عندما توطدت لها دعائم الملك فاستغلت امكاناتها ووجهت اهتمامها في باديء الامر لنقل العلوم الاغريقية والفارسية واليونانية والهندية والسريانية الى اللغة العربية ومن ثم خرجت على البشرية باحدث النظريات التي كانت تسبق المفاهيم العقلية السائدة في ذلك الوقت . والتي تتناسق اليوم مع احدث المعطيات العلمية المعتبرة سبقا علميا يطبع عصرنا هذا بطابع العلم والاختراع . ولنا في مؤلفات البيروني وابن الهيثم وابن سينا وغيرهم من علماء عصرهم اكبر دليل على رقي المفاهيم العلمية في ذلك العصر . الذي يعتبر بحق العصر الاسلامي الذهبي. والذي يمتد من القرن الرابع الهجري حتى منتصف القرن الخامس . ولقد انصف المستشرق الاميركي « ايريوبوب » البيروني حين قال : ان اية قائمة تحوي اسماء اكابر العلماء يجب ان يكون فيها لاسم البيروني مكانه الرفيع . ومن المستحيل ان يكتمل اي بحث في الرياضيات او الفلك او الجغرافيا او التاريخ او علم الانسان او علم المعادن دون الاقرار بمساهمة البيروني العظيمة في كل علم من تلك العلوم .

غير ان العلوم في الادوار التي تلته كانت تتذبذب بين انحطاط او ارتخاء ونهضة او يقظة ، حتى نهاية القرن الخامس عشر . اذ ركدت كليا وبقيت على هذا الحال الى ان حل النصف الثاني من هذا القرن العشرين . فعمت بوادر الاهتمام بالعلوم واحيائها الشرق العربي بكامله وبشكل لم يعرف التاريخ له مثيلا منذ انطواء العصر الذهبي . وذلك اثر نشوب ثورة علمية جارفة اكتسحت البلدان العربية التي نالت استقلالها السياسي بعد معارك ضارية قدمت فيها عددا غفيرا من ابنائها على مذابح التضحية والشهادة. فدعمت استقلالها السياسي بنشر العلم والثقافة وخلقت المعاهد والجامعات واعادت للعلماء والباحثين اعتبارهم التقليدي باذلة لهم الجوائز ومشجعة اياهم على التاليف والاقتباس والترجمة . واصبح العلم من جديد جزءا رئيسيا من كيانها وحيائها .

ان هذه الثورة العلمية التي نحياها تضع امامنا مشكلات جديدة تتصل بكيفية تدريس هذه العلوم ونقلها للجيل الصاعد الذي يتلقف العلم على مقاعد التدريس في الجامعات المحدثة في جميع البلدان النامية التي نالت استقلالا مؤخرا ؛ وفي جامعات البلدان التي لا تزال ترزح تحت نير الاستعمار والاستغلال بجميع وجوهه واشكاله .

لقد عالج الدكتور بشير العظمة موضوع هذه المشكلات في مقاله (لغة العلوم) الذي نشره في العدد

(47) من مجلة «المعرفة» الصادر في دمشق بشهر كانون الثاني 1966 . فاتى على جميع ابعاده القومية والفنية، مثبتا ان موضوع استعمال اداة التفاهم الوطنية في المجال العلمي بديهية لا تبلغ درجة الشك وخلص الى ضرورة توحيد لغتنا العلمية من اجل مصلحة العروبة ومصلحة الانسانية جمعاء . ثم تلاه عدد من الجامعيين من اطباء وعلميين فقاموا بمعالجة هذا الموضوع الخطير . وقد ايد معظمهم الدكتور المعلمة من النواحي القومية والوطنية وعالجوا بعدها المشكلات التى تعترض ايجاد المصطلحات العلمية في بداية الامر بشكل يقبل به جميع الباحثين في الاقطار العربية ، معتمدين على تجاربهم الشخصية في الجامعات العربية التى درسوا فيها ومبينين ان ما ينسب للمصطلحات المعمول بها حاليا من اخطاء يعود الى نقص في التنظيم لا الى فشل بالتعليم باللغة العربية نفسها التى تعتبر بحق من اقدر اللغات على الاداء والتعبير والنحت والتصريف.

ولقد عنيت في هذا المقال ان ادلي بدلوي في هذا المجال الواسع الارجاء ، مستعينا بالتجارب التى مرت علي منذ تاسيس قسم الجيولوجيا في الجامعة السورية بدمشق ، كنت ادرس هذه المادة باللغة الفرنسية في البداية ثم انتقلت بعدها الى تدريسها وبجميع تفرعاتها باللغة العربية القومية مستعينا بالمصطلحات العربية والمنحوتة . **فقد وجدت تجاوبا كبيرا من قبل الطلاب في تدريس هذه المادة باللغة العربية** وتفهما لم اعهده من قبل حين كنت اعطيها باللغة الفرنسية . وكان يعطيها زميل لي باللغة الانكليزية . وقد وقفت بنفسي خلال تجربتي هذه على غنى المصطلحات العربية الواسع في التعبير عن المواضيع الجيولوجية التى سبق للاقدمين ان عالجوها باللغة العربية البديعة ، اذ انهم كانوا ولا شك واقفين على اسرارها . واعتقد جازما ان مصطلحات ابناء الالسنة الاخرى الحية والمعروفة في عصرنا لا تجاريها، وقد اخذوا بقسم كبير منها . ولنا في الامثلة التالية خير دليل على صحة ما ذكرت : فاللابة ونريد بها المهل المنصهرة هي عربية اخذها عنا الغربيون فاستعملوا كلمة Lava يقول الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي في تعليقه لكتاب : نخب الذخائر في احوال الجواهر تاليف السنجاري المعروف بابن الاكفاني : «عندي ان اصل اللابة للحرة «اللائبة» لغة في «الدائبة» لانها كانت في الاصل جواهر ذائبة قذفها جبل النار فجمدت على جوانبه واسفله ومنها استعارها الايطاليون فقالوا Lava والفرنسيون Lave

وكلمة المرقشيتا وهي ضرب من كبريت الحديد فقد ذكرها ابن البيطار وكثيرون غيره من ارباب علم المعادن وقالوا انها البوريطس Pyrite blanche او حجر النار وقد اقتبس الفرنسيون منا المرقشيتا فسموها Macossite ونحن اقتبسناها من الاراميين فانهم يسمونها (مرقشيتا) او (كيفامقشيتا) ومعناها الحجر الصلب او الصلد . فحذف العرب (كيفا) واقحموا راء بين الميم والقاف تعويضا عن المحذوف فصارت كما نرى طلبا للخفة في اللفظ (1).

ان امثال هذه المصطلحات العلمية التى اخذها عنا الغرب كثيرة . فالطلق والسفير وغيرها مستعملة لدى الغربيين ويعنون بها الفاظ : Saphir Talc ويراد بالاولى البودرة والثانية حجر كريم ، وكذلك اخذوا عن اللازورد لفظة Azur للدلالة على لون السماء اذ ان المراد باللازورد حجر كريم مشهور بحسن لونه الازرق السمائي .

على ان العرب من ناحيتهم لم يقصروا في الاقتباس عن غيرهم في عهودهم السابقة ولاسيما في عهد العباسيين . فقد دونوا كل ما وضعه العلماء الاقدمون من يونان وفرس ورومان والفوا في معظم العلوم وجاءت تآليفهم من احسن ما كتب والذى فاق الجميع هو بلا شك ابو الريحان البيروني ، الذى يعد من اعظم علماء الاسلام. فقد كتب معظم مؤلفاته باللغة العربية وشارك في اغلب العلوم والفنون والصنائع حتى قيل فيه « انه في التاريخ مؤرخ محقق مدقق ، واسع الاطلاع ، وفي الجيولوجيا ، جيولوجي ممتاز بشهادة الجيولوجيين المعاصرين ، وفي الفلك فلكي ممتاز بشهادة الفلكيين المعاصرين ، وفي الرياضيات رياضي ممتاز بشهادة اساتذة الرياضيات المعاصرين » ، والكلمات المعربة كثيرة في لغتنا العربية تستعمل بطلاقة وتشمل جميع الفروع من آداب وعلوم ، فالياقوت مثلا كلمة معربة من اليونانية وهي Hyakinthos والمغناطيس معربة من اليونانية ايضا Magnes والرطل هو تعريب لطرا Litra الرومية المأخوذة من مثلها في اليونانية وقد دخلها القلب في العربية ، وقد اجاد

(1) كتاب الذخائر في احوال الجواهر .

العرب ايضا فى النحت فنحتوا كلمة الماذنبي وهو نوع من الياقوت يقول النيفاشي فى اصلها : «سالت بعض مشايخ الجوهريين فى سبب تسمية هذا النوع بهذا الاسم فقال : ان هذا الحجر شديد الشبه بجيد الياقوت ، فاذا قوم بدون قيمة الياقوت ، كانه يقول بلسان حال جودته : « ماذنبي » حتى اقوم بدون قيمة الياقوت » فالكلمة كما نرى اذن منحوتة من ما الاستفهامية وذنب مضافة الى المتكلم (2) . والكلمة هي ضرب من البنفش الذى يدعوه الغرب Hyacinthe

وفى رايي انه يمكن لنا وقد زادت الاصطلاحات الفنية فى يومنا هذا زيادة تتناسب مع متطلبات العلوم الحديثة والاختراعات التى اصبحت لا تقع تحت حصر ، ان ناخذ من هذه المصطلحات بالتعريب والنحت كما اخذ عنها علماؤنا فى السابق . ونمارس التدريس بلغتنا القومية فى جميع المجالات العلمية حتى نجاري الامم التى سبقتنا فى هذا المضمار ، مبينين بذلك ان لغة الضاد هي لغة سخية سمحة تجارى العلوم والمخترعات، فهي لغة علوم بالدرجة الاولى كما انها لغة آداب وفلسفة وفنون ، فيمكننا اذا ما اتفقنا على وضع بعض الاسس فى تعريب المصطلحات ان نصل الى الغاية المنشودة .

لقد سبق لكل من الاتحاد العلمي العربي فى مؤتمره الثالث ومؤتمر التعريب فى المملكة المغربية (3) ان رفعا بعض التوصيات المتعلقة بالخطة العلمية المثلى فى تحقيق التعريب بوجه عام وفى تعريب المصطلحات العلمية بوجه خاص . وقد اخذت الجامعة العربية ببعض هذه التواصي . اذ انها انشات المكتب الدائم للتعريب فى المملكة المغربية ويعتبر عمله فى رايي **خطوة جريئة شاملة فى سبيل تعريب المصطلحات العلمية** فى كل قطر عربي ، اذ انه تقدم باقتراحات موضوعية فى هذا المجال كان تنشا فى كل قطر عربي شعبة وطنية تكون صلة وصل بينها وبين المكتب الدائم للتعريب تشمل اختصاصاته توحيد المصطلحات فى جميع الاقطار العربية وجعلها الزامية .

ولابد لي فى النهاية من التنويه بضرورة اتقان لغة اجنبية حية الى جانب اللغة العربية ، ولاسيما فى المرحلة الانتقالية التى نجتازها ، والتى يتوقف عليها مستقبل الامة العربية جمعاء ، فمكتبتنا العربية ما زالت مفتقرة الى كثير من الكتب العلمية باللغة العربية وان اقتصار الطلبة على هذا النذر اليسير من الكتب العلمية العربية لا يكفي لارواء عطشهم الى الاستزادة من هذه العلوم بغية اللحاق بركب الحضارة العلمي الذى هو هدفنا بالدرجة الاولى . وان اتقان لغة اجنبية يساعد كثيرا على وضع المصطلحات باحسن صيغة فنكون بذلك قد افدنا انفسنا واغنينا مكتباتنا وجامعاتنا بالمصطلحات العلمية التى نحن باشد الحاجة اليها .

ولابد لي من توجيه كلمة شكر وامتنان للقائمين على مجلة المعرفة التى سبقت وفتحت هذا الباب للمناقشة . خدمة للعلم والعلماء فى وطننا بوجه خاص وللانسانية والمعرفة بوجه عام . مؤملا عدم الاكتفاء بما نشر فى هذا الموضوع . ومتابعة المؤسسات المختصة هذا الموضوع للوصول الى مقررات توضع موضع التنفيذ وتخدم لغتنا العربية الغالية علينا وجامعاتنا وثقافتنا ، الخدمة التى نتوق اليها ونتمناها .

(يتبع)

---

(2) كتاب الذخائر فى احوال الجواهر .
(3) راجع العدد الرابع من «اللسان العربي».

حرف الجيم بين الشمس والقمر

الأستاذ محبوب الحلبي
جامعة درهام ـ بريطانيا

يشغل حرف الجيم مكانا فريدا بين الحروف الاخرى بتنوع طرق لفظه فى اللهجات العربية الى درجة لا يكاد يضاهيه فيها اي حرف آخر ، فهو فى الشام رخو قريب الى الشين لما فيه من تعطيش بالغ وهو فى العراق اكثر شدة (1) ، فيه اثر ضئيل من التعطيش اما فى القاهرة فانه يلفظ شديدا مجهورا (2) على غرار ما يسميه البعض بالجيم القاهرية ، بينما نجده قد صار دالا فى بعض مناطق الصعيد المصري وياء عند بعض قبائل الكويت ، وجنوب العراق .

ومما يجدر ملاحظته ان هذه الظاهرة تشمل الحرفين J و G فى اللغات الاوربية وهما نظيرا الجيم فى العربية. اذ ان الـ J يلفظ ياء فى الالمانية وخاء فى الاسبانية ، وهو فى الانجليزية كالجيم العراقية وفى الفرنسية كالجيم الشامية . كما ان الـ G يلفظ احيانا فى الانكليزية والفرنسية كالجيم القاهرية بينما يتخذ فى احيان اخرى اشكالا كالتى اسلفنا ذكرها .

لقد سببت هذه التنوعات فى اللفظ مشاكل شتى فى اللغة العربية اخص منها مسالة الجيم كحرف من الحروف القمرية ، اذ كثيرا ما يجنح البعض من ابناء البلاد العربية وخصوصا فى العراق وسوريا الى لفظ الجيم كصوت شمسي اي بادغام لام المعرفة فى الجيم عند وقوعها فى اول الكلمة فيقولون اجمل بدلا من الجمل . ولا تقتصر هذه المشكلة على الصعوبات التى يلاقيها مدرسو اللغة العربية فى تلك الاقطار بل تتعداها الى احوال يرتكب فيها بعض الخطباء والمذيعين هذه الاخطاء فيتعرضون بذلك الى الكثير من النقد واللوم. على ان هذا الميل للفظ الجيم كصوت شمسي لا يعدو ان يكون ميلا طبيعيا تتطلبه السهولة فى اللفظ والجمال فى النطق ، وهذا يدفعنا لكي نضع استفهاما كبيرا عن سبب ابقاء الجيم بين الحروف القمرية دون الاخذ بالاعتبارات الاخرى التى تحيط بهذه المسالة .

---

(1) الصوت الشديد هو الصوت الانفجاري الذى يحدث بانحباس الهواء عند مخرج الصوت انحباسا تاما ثم انطلاقه فجاة عند انفتاح المخرج كالباء والتاء ، وعكسه الصوت الرخو.

(2) الصوت المجهور هو الصوت الذى يستوجب عنده اهتزاز الوترين الصوتيين اثناء مرور الهواء بهما كالدال والغين ، وعكسه الصوت المهموس .

يقول سيبويه « ولام المعرفة تدغم فى ثلاثة عشر حرفا لا يجوز معهن الا الادغام لكثرة لام المعرفة فى الكلام وكثرة موافقتها لهذه الحروف واللام من طرف اللسان وهذه الحروف احد عشر حرفا منها حروف طرف اللسان وحرفان يخالطان طرف اللسان ... والاحد عشر حرفا النون والراء والدال والتاء والصاد والطاء والزاي والسين والظاء والثاء والذال» واللدان خالطاها الضاد والشين » (3) . وبغض النظر عن السبب الذى جعل سيبويه لا يذكر اللام نفسها بين هذه الحروف الا ان الحروف الباقية وهي التى اصطلح على تسميتها بالحروف القمرية لا تدغم فيها لام المعرفة ويجمعها قولك ابغ حجك وخف عقيمه .

واود فى معرض هذا الحديث ان اؤكد الفرق بين حالتي الحرف المشار اليه هنا ، الاولى كرمز مكتوب تحفظه الكتب من التغيير عبر العصور والثانية كلفظ مسموع لم يكن هناك من وسيلة لحفظه قبل ظهور اجهزة تسجيل الصوت الحديثة . فالخلط بين الرمز واللفظ امر يجب تجنب الوقوع فيه فى حكمنا على الجيم وغيرها فى وقتنا الحاضر ، اذ على الرغم من ورود الجيم كحرف قمري منذ بدء اهتمام العرب بعلم الاصوات الا اننا لا نزال غير متاكدين من الطريقة التى كان يلفظ بها هذا الحرف عند قدماء العرب ، فقد جاء عن الخليل بن احمد الفراهيدي فى كتاب العين ان الجيم والشين والضاد شجرية لان مبداها من شجر الفم اي مفرج الفم (4) ، اما سيبويه فقد كان اكثر تفصيلا اذ يخبرنا ان من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الاعلى مخرج الجيم والشين والياء، كما انه وصف الجيم بانها من الحروف الشديدة المجهورة ، فهذه الاوصاف رغم اعطائها فكرة جيدة عن طريقة لفظ هذا الحرف فى ايام الخليل وسيبويه الا انها غير كافية لتدلنا على اللفظ بحذافيره .

وقد كانت هناك اكثر من محاولة من قبل المهتمين بعلم الاصوات فى وقتنا الحاضر لاستنتاج الطريقة التى كان ينطق بها هذا الحرف عند قدماء العرب فنجد الدكتور ابراهيم انيس يقول « ويظهر ان الجيم التى نسمعها الآن من مجيدي القراءة هي اقرب الجميع الى الجيم الاصلية، ان لم تكن هي نفسها » (5) . واغلب الظن ان المقصود هنا بالجيم الاصلية هي تلك التى كان ينطق بها ايام الخليل وسيبويه اذ ان من الصعب افتراض جيم اصلية لم يسبقها تطور فى اية مرحلة من مراحل التاريخ . ومهما يكن من امر فان الارجح ان الدكتور ابراهيم انيس كان متفائلا فى استنتاجه واننا فى الواقع لا نزال بعيدين عن التوصل الى صورة اكيدة للطريقة التى كان ينطق بها حرف الجيم التى وصفها سيبويه قريبة من التى نسمعها الآن من مجيدي القراءة القرءانية لوصفها ، كما وصف العين ، بانها بين الشدة والرخاوة ولما ابقاها بين الحروف الشديدة ، بل ان الجيم وردت كنموذج للحروف الشديدة فى الامثلة التى جاءت فى المفصل للزمخشري (شرح ابن يعيش) . وحتى فى القرن التاسع الهجري نجد ان ابن الجزري يعتبر الجيم من بين حروف القلقلة (6) وهي الحروف الشديدة المجهورة . وانا لا استبعد ان يكون تطور الجيم نحو شيء من الرخاوة نوعا من الحرص للابقاء على جهرها وهي بهذا تختلف عما هو اكثر شيوعا وهو الابقاء على الشدة والتطور من الجهر نحو الهمس .

وهناك دلائل تشير الى ان وضع الجيم لم يكن على درجة كبيرة من الاستقرار منذ تلك الايام وان هناك ميلا للانحراف بمخرج الجيم الى مخارج قريبة فسيبويه يكشف ذلك بقوله « ... وتكون اثنين واربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة فى لغة من ترتضي عربيته ولا تستحسن فى قراءة القرءان ولا فى الشعر وهي الكاف التى بين الجيم والكاف والجيم التى كالكاف والجيم التى كالشين والضاد الضعيفة ... » (7) كما نجد ان ابن الجزري بعد ذلك بعدة قرون ينصح بالتحفظ باخراج الجيم من مخرجها « فربما خرجت من دون مخرجها فينتشر بها اللسان فتصير ممزوجة بالشين كما يفعله كثير من اهل الشام ومصر وربما نبا بها اللسان فاخرجها ممزوجة بالكاف كما يفعله بعض الناس وهذا

(3) الكتاب، الجزء الثاني صفحة 416
(4) العين صفحة 2
(5) الاصوات اللغوية صفحة 65
(6) «النشر فى القراءات العشر» الجزء الاول صفحة 203
(7) الكتاب الجزء الثاني صفحة 404

موجود كثيرا في بوادي اليمن » (8) . على ان ابن الجزري لم يكن بنفسه واثقا من مخرج الجيم الحقيقي حيث يقول «للجيم والشين المعجمة والياء غيرالمديةمن وسط اللسان بينه وبين الحنك ويقال ان الجيم قبلهما وقال المهدوي ان الشين تلي الكاف والجيم والياء يلبان الشين وهذه هي الحروف الشجرية» (9). وعلى كل حال فان ابن الجزري يختلف هنا عن بعض اسلافه من امثال ابي علي القالي المولود في اواخر القرن الثالث الهجري والذي اعتبر ان مخرج الجيم يلي مخرج الضاد.

ان ما سبق يشير الى ان ثمة تطورا ما قد صاحب نطق الجيم طوال هذه المدة وان الجيم التي وصلتنا لتختلف بكل اشكالها الحالية عن نظيرتها لدى الخليل فلا عجب ان نجد الدكتور مهدي المخزومي يخبرنا في كتابه عن الخليل بان المحدثين يخالفون الخليل وسيبويه بالنسبة لمخارج الحروف الشجرية اذ هم يعدون مخرج الياء والجيم من بين مقدم اللسان وسقف الحنك الصلب والشين من بين اسلة اللسان او ما يليها وبين حافة الاسنان. وانا استبعد جدا ان يكون اختلاف الخليل وسيبويه عن جيلنا سببا عن خطأ منهما وما هذا الاختلاف الا نتيجة حتمية لتطور الجيم ودليلا كافيا على اننا ما زلنا بعيدين عن جيم القرن الثاني الهجري .

وها نحن اليوم ننطق بجيم عراقية ، وهي قريبة جدا لما نسمعه من مجيدي القراءة القرءانية ، واخرى قاهرية وثالثة شامية ورابعة تنطق ياء الخ .. انحدرت الينا كلها بهذه التشعبات بفعل عوامل معينة لا تبعد ان تكون هي نفسها التي سببت تشعب نظيرات الجيم في اللغات الاوربية . الا ان المهم في هذا البحث هو موضوع ادغام لام التعريف في الجيمين اللتين اسميتهما بالشامية والعراقية نظرا لان الملايين من الناطقين بالعربية يستعملونهما كل يوم . وعندهم تكون الجيم شمسية اذا تكلموا بصورة عادية وتكون قمرية اذا تكلفوا اللفظ واصطنعوا الفصاحة نزولا عند قانون سن منذ اثني عشر قرنا خلت فتغيرت الجيم وبقي القانون .

وادغام لام التعريف في الحروف الشمسية يتم بالدرجة الاولى نتيجة الاقتصاد في الجهد العضلي . وهو امر مسلم به منذ القدم كما يعبر عنه سيبويه بقوله « ليكون عمل اللسان من وجه واحد » ، فالحروف الشمسية كلها اصوات ذات مخارج لسانية قريبة من مخرج اللام وهذا يسبب تأثر الصوتين بالمجاورة وبالتالي ادغام لام التعريف وفناءها في الحرف الشمسي الذي يليها . بينما لو استعرضنا الحروف القمرية لوجدنا ان اللسان لا يستعمل الا في نطق ثلاثة منها وهذه بعيدة عن مخرج اللام على اي حال ، اما الجيمان الشامية والعراقية فللبرهنة على انهما ينتميان الى مجموعة الاصوات الشمسية اليك اختبارا بسيطا :

ضع لسانك في الموضع الطبيعي للفظ صوت اللام وابق لسانك في هذا الوضع ولكن بدلا من لفظ اللام اللفظ عبارة ابغ حجك وخف عقيمه ، وهي العبارة التي تجمع الحروف القمرية كما اسلفنا ، ستجد انك تستطيع لفظ العبارة كلها بوضوح فيما عدا الجيم اذا كانت شامية او عراقية .

ان هذا الاختبار على بساطته يرينا كيف ان عمل اللسان في لفظ اللام يكون «من وجه واحد» مع الجيمين وبذلك كان ادغام لام التعريف بهما مناسبا . وبصورة عامة فان هذا الاختبار يعطينا طريقة مباشرة لتقدير اهلية الصوت اللغوي لادغام لام التعريف به اي للحكم على كون الصوت شمسيا او قمريا .

وبناء على كل ما تقدم فانني لا ارى اي مبرر للاصرار على ابقاء الجيمين الشامية والعراقية في ضمن الاصوات القمرية وقد حان الوقت لكافة الذين تصادفهم هذه المشكلة ان يتقبلوا الامر على اساس من المنطق . اما الذين يستشهدون بسيبويه فاذكر لهم انه انما كان يتحدث عن رمز معين لا دليل لنا اليوم كيف كان يلفظ ، واني على يقين انه لو كان سيبويه اليوم حيا بيننا لوضع الجيمين الشامية والعراقية مع اللواتي « لا يجوز معهن الا الادغام » .

---

(8) « النشر في القراءات العشر » الجزء الاول صفحة 217 .
(9) المصدر السابق ص 200 .

أثر اللسان العربي في اللغة الإسبانية

الأستاذ سامي الحفار الكزبري (دمشق)

الاستاذ سامي الحفار الكزبري
(دمشـــق)

لا ريب في ان اثر اللسان العربي في اللغة الاسبانية من اهم آثارنا في اسبانيا واكثرها خلودا ، كما انه دليل قاطع على ان الحضارة العربية الاسلامية وجدت في الاندلس الارض الخصيبة لازدهار اغراسها . فاذا تجلت تلك الحضارة في العلوم والفنون والآداب ، في الهندسة والتجارة والزراعة والصناعة ، ومنحتنا تراثا عربيا اندلسيا افادت منه الانسانية ، فلقد كان اللسان العربي خير اداة للتعبير عن تلك الحضارة خلال تسعة قرون تقريبا . فالعرب عاشوا في الاندلس ثمانية قرون الا قليلا ابان حكمهم لها ، منذ دخول طارق بن زياد الى شبه الجزيرة الايبيرية سنة 711 م حتى خروج آخر ملوك بني الاحمر من غرناطة سنة 1492 م ؛ ولكن من الثابت ان الاثر العربي في بعض مناطقها قد استمر حتى مطلع القرن السابع عشر ؛ وذلك لان نصف مليون عربي اختاروا البقاء في اسبانيا بعد ان استرجعها ملوكها لشدة تعلقهم بها وبارضها جيلا بعد جيل . وقد عرف هؤلاء باسم موريسكوس Moriscos وظلوا يتكلمون العربية ويكتبونها حتى تم اندماج بعضهم بالاسبان نهائيا لغة ودينا ؛ في حين هاجر البعض الآخر الى الشمال الافريقي . فالموريسكوس هم العرب الذين تنصروا بعد ان استرجع ملوك الاسبان بلادهم من المسلمين العرب ، اما الذين لم يتنصروا وآثروا البقاء في الاندلس فلقد اضطروا للموافقة على التبعية للملوك الكاثوليك واطلق عليهم اسم : « المدجنون » Mudéjares وتولد عن بقائهم فن جديد في الهندسة والصناعة اليدوية سمي : المدجن Mudéjar لذا لا نستطيع ان نقول بان الاثر العربي في اسبانيا قد زال بزوال سلطانهم عليها .

وقبل ان نتحدث عن اثر الموريسكوس والمدجنين في اللغة الاسبانية في مختلف بقاع الاندلس لابد لنا من التحدث عن طبقة «المستعربين» Mozárabes وهم ابناء البلاد الذين تاثروا بالثقافة العربية والحضارة الاسلامية ابان الحكم العربي في اسبانيا . لقد حافظ هؤلاء على معتقداتهم الدينية غير انهم تعلموا العربية وتبنوها في حياتهم وكانوا يتكلمون كذلك لغة بلادهم الاصلية المشتقة من اللاتينية والتي كانت تعرف باسم الرومانسية وهي نواة اللغة الاسبانية . فالحكم العربي في الاندلس توطدت دعائمه اثر حكم القيزقوطيين Romane ، وهي نواة اللغة الاسبانية . فالحكم العربي في الاندلس توطدت دعائمه اثر حكم القيزقوطيين Visigodos وهم قوم من الجرمان احتلوا اسبانيا في القرن الخامس الميلادي قادمين من ايطاليا وفرنسا وتبنوا لغة الرومان الدارجة فيها وادخلوا في تلك اللغة اللاتينية الشعبية بعض تعابيرهم واسمائهم ومفرداتهم ، ولكن حصيلة ما قدموه لتغذية اللغة الاسبانية لا تقارن بما قدمه العرب اليها من